إميل سيوران

المياه كلّها بلون الغرق

ترجمة: آدم فتحي



منشورات الجمل

علي مولا

إميل سيوران

المياه كلّها بلون الغرق

ترجمة: آدم فتحي

منشورات الجمل

إميل سيوران: المياه كلّها بلون الغرق

إميل سيوران (١٩١١-١٩٩٥) انظر المقدمة ص ٥.

آدم فتحي: شاعر تونسي (١٩٥٧) له اسهامات في المقالة الصحفية والدراسة النقدية والقصة. آشرف على عدة صفحات ثقافية. له العديد من المؤلفات والمترجمات منها: **أناشيد لزهرة الغبار**، شعر (١٩٩٢)؛ **يوميات شارل بودلير**، ترجمة (١٩٩٩)؛ جيلبرت سينويه: **ابن سينا أو الطريق الى أصفهان**، رواية، ترجمة (١٩٩٩)؛ نعيم قطّان: **وداعاً بابل**، رواية، ترجمة (١٩٩٩).

العنوان من وضع الناشر، العنوان الأصلي للكتاب: **مقايسات المرارة**

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

على سبيل التقديم
لماذا يجب أن نقرأ سيوران
عاشق الحياة، الانتحاريَ بامتياز...

لعلّنا لم نر عتمة أشدّ من هذه التي تحيط بالإنسانيّة من كلّ جانب في بداية هذا القرن الواحد والعشرين، ونحن بين ألفيّة أسكنت القبر وأخرى تنتفض كالطائر الخارج من بيضته، مدجّجة بكلّ ما ورثته عن سابقَتِهَا من وسائل تدمير الروح والعقل والجسد والقِيم والوجدان...
في مثل هذه العتمات نحتاج إلى كتّاب مثل سيوران.

كان يعتبر نفسه من «الفلاسفة بالصدفة»، معلنًا أنّ الكتب الوحيدة التي تستحقّ أن تُكتب هي «تلك التي يؤلّفها أصحابها دون أن يفكّروا في القرّاء ودون أن يفكّروا في أيّ جدوى أو مردود» مضيفًا «إنّ مأساة الكتّاب بصفة عامّة تتمثّل في كونهم يملكون جمهورًا ويكتبون لهذا الجمهور، وهذا لا يمكن أن يؤدّي إلاّ إلى عواقب وخيمة».

كتب يقول: «ليس لي أفكار، بل وساوس... أحبّ الفكر الذي يحافظ على مذاقٍ من الدم واللحم... » ذلك أنّ الكتابة بالنسبة إليه طريق إلى اللاكتابة. إنّها نوع من التحايل على الحياة التي تتظاهر بالمعنى والحال أن لا معنى لها على الإطلاق. إنّ الحياة تدفع إلى الموت ولكنّ الموت بهذه الطريقة هو استسلام أسهل من أن يقبل به من كان مثل سيوران، لذلك فهو يكتب كي يموت على طريقته هو، بإستطيقاه هو، عابثًا بالفلسفة النسقيّة خصوصًا، ساخرًا من الفكر المحنّط في صرامته البهرجيّة، آخذًا من الشعر والموسيقى جوهرهما المشترك: الومضة والإشراق. وكأنّه يعلن أنّ من كان شظيّة مثله لا يمكن أن يكتب إلاّ بالشظايا، بالشذرات، بالمزق المتناثرة في كلّ اتّجاه، وخاصّة في اتّجاه السقوط، وهو اتّجاه الكينونة الوحيد منذ البداية. وقد اختار سيوران أن يواجه سقوطه وأن يتلمّسه ويتحسّسه بالكتابة الساخرة المرّة اللاعبة بحكمتها المستظلّة بخفّتها المستنجدة بهشاشتها استنجادها بآخر ملجأ ممكن للإنسان، وهي كتابة جسديّة تكاد تمارس الجنس مع الكون في وضع اغتصاب ساديّ مازوشيّ متبادل، لا يهرب من الموت لكنّه يرفض الانتحار، من ثمّ نفهم قوله: «إنّ كلّ كتاب هو انتحار مرجأ...»

هذا الكاتب «الزاهد» في الجمهور ألّف لـ «جمهوره» خمسة عشر كتابًا إلى جانب المخطوطات التي عُثِر عليها بعد وفاته والتي قد تصدر قريبًا. وليست هذه أقلّ مفارقاته هو الذي يصحّ أن نطلق عليه اسم سيّد المفارقة. لقد دأب على الكتابة والنشر طيلة حياته بما لا يدع مجالاً للشكّ في حرصه على الحضور، إلاّ أنّه كان يريده حضورًا دون ظهور، حضورًا خاليًا من البهرج والزينة والفرجويّة. لذلك ظلّ حريصًا على الإقامة في مناطق الظل بعيدًا عن الإعلام وأضوائه الكاشفة. ولعلّه كان أسعد حالاً طيلة الثلاثين سنة التي ظلّت خلالها كتبه تطبع في نُسخٍ معدودة، ليعتني بها قلّة من النقّاد والمعجبين والمتابعين. كان ذلك أقرب إلى قَدَر «الكاتب اللعين»، وهو القدر الذي اختار مواجهته وتحمُّلَ أعبائه. أليس هو من يرى أنّ الكتابة التي لا تقوّض نفسها بعد أن تقوّض كلّ شيء ليست سوى عبث في عبث؟ أليس هو الذي يرى (وهي فكرة نجدها لدى بودلير أيضًا في اليوميّات) أنّ النسيان لا يطال إلاّ الكتّاب الذين «فُهِمُوا» والذين لم يعرفُوا كيف يضمنون «سوء فهم» الآخرين لهم؟

ثمّ حلّت سنة ١٩٦٥ وصدر له كتاب «رسالة في التحلّل» ضمن سلسلة كتاب الجيب، وأخذت أعماله طريقها إلى الألمانيّة

والإنكليزيّة وتضاعفت كميّة السحب عديد المرّات. ولا شكّ أنّه لم يحزن مثلما حزن سنة ١٩٨٨ حين مُنِح جائزة بول موران Paul Morand فاضطرّ إلى رفضها رفضًا صارخًا. ذلك أنّ هذا«النجاح» وهذا «التكريم» لا يعنيان إلاّ شيئًا واحدًا ظلّ يعتبره طيلة حياته منافيًا للقدر اللائق بكاتب مثله: التكريس. قال (في مجلة Lire) متحدّثًا عن بورخيس ولعلّه يقصد نفسه: «لا عقوبة أشدّ من التكريس... إذ ما أن يصبح الكاتب مرجع الجميع حتّى يتعذّر الرجوع إليه، خشية أن نزيد من حشد المعجبين به، أي خشية أن نزيد من عدد أعدائه..».

تماهى سيوران مع ما يكتبه كما تماهى مع ما كتبه أولئك الذين اعتبرهم يملكون الحقيقة. الحقيقة؟ وجدها لدى شكسبير مثلاً. هكذا قال في أكثر من شذرة وفي أكثر من كتاب. قارن نفسه أكثر من مرّة بماكبث. بل ذهب إلى أبعد من ذلك. ماكبث سرق منه أفكاره. والأغرب من ذلك أنّه قرّر ذات يوم وكان يعدّ كتابًا عن القدّيسين، أن لا يتحدّث إلاّ مع شكسبير. يقول Christian Bouchard (موسوعة Agora): كان سيوران جالسًا ذات يوم في مقهى فاقترب منه أحد أساتذة الرياضة وسأله إن كان يسمح له بالجلوس إلى جانبه، فصاح في وجهه سيوران: ومن أنت؟ هل أنت شكسبير؟ فأجابه الأستاذ

مذهولاً: طبعًا لا، وأنت تعرف ذلك، فواصل كاتبُنا اللعبة: كيف؟ أنت لست شكسبير؟ إذن فلتذهب إلى الجحيم... وما كان من الأستاذ إلاّ أن نجا بنفسه مردّدا في كلّ مكان أنّ سيوران قد جنّ دون شكّ...

* * *

ولد إيميل سيوران في الثامن من شهر نيسانتأبريل سنة ١٩١١ بقرية رازيناري، إحدى قرى ترانسيلفانيا الرومانيّة التي كانت وقتها تحت هيمنة نمساويّة مجريّة. نشأ الطفل في مناخ لا يمكن إلاّ أن يجذّر لديه روح المفارقة التي طبعت كتابته فيما بعد. فقد كان والده كاهن الطائفة الأرثوذكسيّة بالقرية وكانت أمّه لا تخفي سوء ظنّها بكلّ ما يتعلّق بالدين واللاهوت. إلاّ أنّه وعلى الرغم من نشأته بين هذين القطبين المتقابلين، ظلّ يحمل عن طفولته انطباعًا فردوسيًا، فقد عاش تلك السنوات على إيقاع الطبيعة متملّيًا من الخضرة متسلّقًا الأشجار متجوّلاً بين الهضاب الهادئة منصتًا إلى حكايات الرعاة.

الانسلاخ الأوّل

إلاّ أنّه سرعان ما حُرِمَ من فردوسه، وكانت تلك أوّل المحن التي تركت في نفسه وفي كتابته فيما بعد أثرا لا يمحى. فقد

اضطرّ سنة ١٩٢١ إلى الرحيل إلى سيبيو المدينة الكبيرة المجاورة حيث يتجاور الرومانيّون والمجريّون والألمان وحيث المعهد الثانوي وحيث أصبح والده رئيس كنيسة. عاش سيوران بذلك «لحظة اقتلاع جذور» بأتمّ معنى الكلمة، لم تغادره بصماتها بعد ذلك طيلة حياته. هناك واجه معنى التحوّل الأوّل، فقدان الطفولة بشكل قاسٍ ونهائيّ، الانسلاخ من كيان إلى كيان. ولم يخفّف من وطأة ذلك أنّه أحبّ مدينته الجديدة وتعلّق بمعمارها القروسطيّ وألِفَ سكّانها القادمين من كلّ مكان.

الانسلاخ الثاني

بعد ذلك بمدّة عاش سيوران محنته الثانية، الجرح الثاني الذي لن يلتئم والذي سيحدّد مجرى حياته كإنسان وككاتب. تمّ ذلك وهو على مشارف العشرين من عمره. كان في عمرٍ لا يسمح بالعيش بين أبوين مختلفين كأبويه دون توتّر. وإذا كان الأب قادرًا على امتصاص جموح المراهق لدى ابنه فإنّ الأمّ كانت شديدة الحساسيّة عصبيّة المزاج قادرة على التفوّه بما يدمي الروح. وذلك ما تمّ فعلاً. حمي الوطيس بينها وبين ابنها ذات يوم فصرخت في وجهه: «لو كنت أعلم ما سيؤول إليه حالك لأجهضْتُكَ منذ شهور الحمل الأولى...» كلمات قد تُحمل

محمل الغضب وقد تمرّ عابرة دون أثر يُذكر لولا أنّها وقعت في أذنَي سيوران. لقد وضعته تلك الكلمات في مواجهة تحوّل آخر، انسلاخ ثانٍ، الانسلاخ من الطمأنينة، طمأنينة النفس، ذلك اليقين الخفيّ بأنّه لم يوجد عبثًا. هكذا إذَن كان من الممكن أن يموت قبل أن يولد، أن يُلقى به خارج الرحم لمجرّد رغبة أو نزوة. لم يوجد إلاّ نتيجة صدفة، فوجوده إذنْ ليس ضروريًا. ظلّت تلك العبارة تسكن أعماق سيوران وتحفر فيه حتّى أنّه أعاد صياغتها على طريقته بعد سنوات طويلة قائلاً: في وسعي أن أرتكب الجرائم كلّها باستثناء أن أكون أبا» مؤكّدًا بتلك المرارة التي يرفض نسبتها إلى اليأس بقدر ما يراها معبّرة عن وضوح الرؤية: «رؤيتي للمستقبل، هي من الدقّة، بحيث لو كان لي أطفال لخَنَقتُهم على الفور...»

الانسلاخ الثالث

بعد انتقاله إلى سيبيو بسبع سنوات اضطرّ إلى الرحيل إلى بوخاريست لدراسة الفلسفة، وكان ذلك تعميقًا لجرح المنفى والانبتات. هناك عاش المنعطف الثالث الذي حفر فيه عميقًا وجعل حياته تأخذ مجراها الغريب المتفرّد. هناك عرف سيوران أوّل أعراض المرض الذي سيصاحبه إلى النهاية والذي سيغيّر نظرته إلى كلّ شيء: مرض الأرق، فقدان نعمة

النوم، وعانى جرّاء ذلك حتّى فكّر في الانتحار. إلاّ أنّه سرعان ما وجد الحلّ: العمل بنصيحة نيتشة: تحويل ليالي الأرق الطويلة إلى وسيلة للمعرفة. «ألا نتعلّم في ليلة بيضاء واحدة ما قد لا نتعلّمه في سنة كاملة من النوم؟». كان في الثانية والعشرين من عمره. في تلك الفترة ألّف باللغة الرومانيّة كتابه الأوّل «على ذرى اليأس» الذي نشره سنة ١٩٣٤. كتب يقول في مقدّمة الكتاب متحدّثًا عن ظروف تأليفه: «... كنت أيّامها قد أتممت دراستي وأردت أن أغالط أبويّ وأن أخدع نفسي فتظاهرت بإعداد أطروحة فلسفيّة. أعترف بأنّ المعجم الفلسفيّ كان يداعب غروري ويدفعني إلى احتقار كلّ من يستعمل الكلام العاديّ. إلاّ أنّ انقلابًا داخليًا وضع حدًّا لكلّ ذلك وأطاح في الوقت نفسه بكافّة مشاريعي. الظاهرة الأساسيّة، الكارثة بامتياز، تمثّلت في السهر المتواصل، هذا العدم الذي لا هدنة فيه. كنت مضطرًّا طيلة ساعات وساعات إلى التجوال ليلاً في شوارع خالية أو في تلك التي تسكنها أحيانًا بنات الليل الوحيدات المحترفات، أفضل الرفيقات لحظاتِ الحيرة القصوى. إنّ الأرق وعيٌ مدوّخ قادر على تحويل الفردوس إلى غرفة تعذيب. ما من شيء إلاّ وهو أفضل من هذه اليقظة الدائمة، هذا الغياب الآثم للنسيان. خلال تلك الليالي الجهنّميّة فهمتُ بطلان الفلسفة. ليست ساعات السهر

في آخر الأمر سوى حيّز لا ينتهي من رفض الفكر للفكر. إنّها الوعي وقد ضاق بالوعي. إنّها إعلان حرب. إنّها إنذار جهنّميّ أخير يوجّهه العقل لنفسه. قد يمنعنا المشي من أن نقلّب الأسئلة ونعيد تقليبها دون العثور على أجابة، أمّا الفراش فإنّه لوك واجترار لما ليس له حلّ، إلى حدّ الدوار.

تلك كانت حالتي الذهنيّة عند تأليفي هذا الكتاب، الذي كان بالنسبة إليّ نوعًا من التحرّر، نوعًا من الانفجار المُخَلِّص. وأعتقد أنّي لو لم أكتبه لوضعت حدًّا لليالي.»

الانسلاخ الرابع

بعد مدينة سيبيو انتقل سيوران إلى برلين حيث أقام فترة للدراسة، ثمّ فرغ إلى تدريس الفلسفة بمعهد براسوف بين سنتي ١٩٣٦و١٩٣٧. كان قد نشر العديد من المقالات في مجلاّت مختلفة وظهر كتابه الثاني باللغة الرومانيّة أيضًا: «كتاب الخِدع»، وسرعان ما اعتبره الكثيرون أحد الوجوه الواعدة في الأدب الرومانيّ الشابّ إلى جانب أوجين يونسكو ومرسيا إلياد. إلاّ أنّه في نهاية سنة ١٩٣٧ وقبل أسابيع من صدور كتابه الثالث بالرومانيّة «دموع وقدّيسون»، تحصّل على منحة من معهد بوخاريست الفرنسيّ لإعداد أطروحة في الفلسفة بباريس فارتحل على الفور. هناك تخلّى عن كلّ شيء

وتفرّغ إلى المطالعة بنهم والتيه في الشوارع والتجوال على متن درّاجة في الأرياف الفرنسيّة، مواصلاً التأليف بالرومانيّة. وأثمر ذلك كتابه الرابع والأخير في لغته الأمّ «غروب الأفكار»، الذي نشره سنة ١٩٣٨. إلاّ أنّ الليالي الطويلة التي قضّاها يجوب الشوارع والأزقّة المعتمة أفضت شيئًا فشيئًا إلى يقين موجع: «من الأفضل أن يكون المرء مؤلّف أوبريت على أن يكون صاحب ستّة كتب في لغة لا يفهمها أحد...»

هكذا أخذ سيوران طريق تحوّله الجديد. انسلاخه الرابع والحاسم. انسلاخه الاختياريّ هذه المرّة: الخروج من لغة إلى لغة أي من هويّة إلى هويّة، مع ما يعني ذلك من إحساس بالغربة والتمزّق لن يفارقه مدى الحياة. يقول سيوران إنّه قرّر التحوّل إلى الكتابة بالفرنسيّة أثناء محاولته ترجمة مالارميه إلى الرومانيّة. إلاّ أنّ متابعي سيرة حياته لا يستبعدون تدخّل عوامل أخرى، لعلّ من بينها ذلك الدرس الذي حضره بالكوليج دي فرانس والذي شاهد خلاله أستاذ رياضيّات يقوم ببرهنة رياضيّة على السبّورة دون أن يحتاج إلى التفوّه بكلمة. هذا التحوّل، هذا الانسلاخ اللغويّ، كان في أهمّية تخلّي نابوكوف عن الروسيّة لفائدة الفرنسيّة. «منذئذ ستصبح الفرنسيّة وخاصّة فرنسيّة القرن الثامن عشر بمثابة

القميص الجبريّ أو سترة المجانين التي ستشكم الغنائيّة البلقانيّة ليائس لم يكن يحلف إلاّ بتيريز دافيلاً ودوستويفسكي. من ثمّ هذه النبرة الفريدة، هذا التوليف العجيب بين الحكمة والهذيان، بين الهذيان الصوفي وسخرية الوعّاض الكلاسيكيّين».

الانسلاخ الخامس

سنة ١٩٤٧ عرض سيوران على دار غاليمار مخطوط كتابه «رسالة في التحلّل» فقبلت الدار نشره، إلاّ أنّه استعاد المخطوط وعاود الاشتغال على الكتاب (هناك من يتحدّث عن أربع صيغ) ولم ينشره إلاّ بعد سنتين. قوبل الكتاب بحفاوة نقديّة إلاّ أنّ التوزيع كان محدودا جدّاً. وظلّت تلك حال كتب سيوران طيلة ثلاثين عامًا. كان الأمر مفهومًا، فهو على النقيض تمامًا من سارتر الذي كان أيّامها سيّد المشهد. لم يؤمن سيوران بالشارع أو بالرأي العامّ (وهو من هذه الناحية تلميذ نيتشة النجيب)، كما عزف عن المشاركة في الحياة الجماعيّة. كان دائمًا شديد التوجّس من الالتزام بالمعنى السياسيّ الضيّق للكلمة. ثمّ أنّه لم يجد بدّاً من إشهار عدائه للشيوعيّة التي كان أتباعها في بلده رومانيا قد سجنوا أخاه وعددا من أصدقائه ومنعوا تداول كُتُبِه في الضفّة الأخرى من

الستار الحديديّ. ولم تكن محدوديّة الانتشار أمرًا يحزنه أو يزعجه. كانت لديه القوّة الكافية لمواجهة الإهانات والخيبات والمصادرة بما يجده من عزاء لدى عدد من الأصدقاء لم يكونوا من النكرات، فيكفي أن نسمّي من بينهم يونسكو ومرسيا إلياد وبيكيت وهنري ميشو وغابرييل مارسيل، وأيضًا لدى قرّائه الذين كانوا متعصّبين له على قلّتهم. ولعلّه كان شديد الامتنان وهو يسخر منهم قائلاً: «لا يهتمّ بي إلاّ من كان به بعضٌ من مسّ».

ثمّ ما لبث الأمر أن تغيّر إلى النقيض. سنة ١٩٦٥ صدر كتاب رسالة في التحلّل ضمن سلسلة كتاب الجيب ذات الانتشار الواسع، واكتشف الجيل الجديد «مقايسات المرارة» و«غواية الوجود» وغيرهما من الكتب: خمس عشرة كتابًا في حياته آخرها كتاب «اعترافات ولعنات» المنشورسنة ١٩٨٨. وتوالت الترجمات إلى الألمانيّة والإنكليزيّة والإسبانيّة وتعدّدت المقالات والدراسات وتأثّرت لكلّ ذلك أرقام المبيعات...

ولعلّ ذلك كان الانسلاخ الأخير الذي كان ضحيّته سيوران على الرغم من أنّه لم يتغيّر وظلّ يمتنع عن الظهور ويرفض

الجوائز ويبتعد عن وسائل الإعلام مكتفيا بالكتابة حافرًا في الاتّجاه نفسه حائكًا نسيجه بذلك الأسلوب ذي الأناقة الجليديّة في التيمات نفسها التي سكنته منذ المراهقة: دوار الزمن، الموت، سلبيّات أن يولد الإنسان، الصوفيّة المسيحيّة، انهاك الحضارة الغربيّة، بوذا، شكسبير، باخ...

لكن ماذا يستطيع الكاتب أمام التكريس وخاصّة أمام الموت، هو الذي كان أسطورة بالرغم عنه وظلّ يحارب أسطورته بنفسه؟ ها هو بموته يتحوّل إلى أسطورة لن تجد من يحاربها بعده. ولعلّه انسلاخه الأخير...

الجرح السريّ

إلاّ أنّ هناك جرحًا غائرًا في أعماق سيوران، أثّر في حياته وفي كتاباته وفي نظرته إلى العالم وفي علاقته مع الآخرين، وقابله أغلب دارسيه ومترجميه (خاصّة إلى العربيّة) بالتكتّم والإنكار، ويتمثّل هذا الجرح في علاقة سيوران بالفاشيّة، وبشخصيّة هتلر تحديدًا...

لنقرأ ما كتبه في وثيقة عثرت عليها بعد موته رفيقته سيمون بويه:

«... لقد حدث لي قبل أن أبلغ الثلاثين أن أحسست بعاطفة

جيّاشة تجاه بلدي، عاطفة يائسة عدوانيّة لا أفق لها، عذّبتني وعاشت معي طيلة سنوات... في تلك الفترة ظهر في رومانيا شيء يشبه الحركة أو التظيم، بهد ف إصلاح كلّ شيء، حتّى الماضي... وقد ارتبت في الأمر إلاّ أنّي رأيت فيه الإشارة الوحيدة إلى أنّ بلادنا يمكن أن تتحوّل إلى شيئ آخر غير الوهم...»

انساق سيوران مع هذه الرؤية وكتب الكثير من المقالات حاثًّا شبيبة بلده على أن يتحمّلوا بشجاعة «أقسى العواقب، كي تنتصر اللاعقلانيّة في السياسة، مقتدين بالمثال الرائع ألمانيا، حتّى تنبعث رومانيا مختلفة تعيش فعلاً لحظتها التاريخيّة متخلّصة من كلّ الأفكار الجاهزة المخزية، التي من بينها فكرة الحريّة للجميع...»

كان في الثانية والعشرين آنذاك، وقد برّر مواقفه تلك وفي أكثر من مناسبة بعد ذلك، بالطيش وعدم النضج، إلاّ أنّ المسألة كانت أعمق بكثير. كتب في ذلك الوقت: «قد تتناقض أشياء على الصعيد العقليّ إلاّ أنّها تتناغم على صعيد الواقع بمجرّد أن توجد في الحياة... لذلك نستطيع أن نشكّ في كلّ شيء وأن نكون على الرغم من ذلك مع الدكتاتوريّة...» مضيفًا في مكان

آخر أنّه «لا يخفي ميله إلى الحالمين حتّى إن كانوا حالمين دمويّين...» وأنّه يعتقد «أنّ القوّة المنظّمة قادرة على لعب دور حاسم» وأنّ وجود رومانيا التاريخيّ «لا يمكن أن يظلّ كلّه محكومًا بالرداءة...»

والحقيقة أنّ سيوران لم يكن وحده في هذا الحماس للمدّ الإيديولوجيّ اليمينيّ المتطرّف الذي تفشّى في رومانيا فترة ما بين الحربين، واستطاع تجنيد خيرة طليعتها الثقافيّة: مرسيا إلياد وقسطنطين نويكا فضلاً عن سيوران. وقد رأوا في تلك الأطروحات نوعًا من الدفاع عمّا أسموه بالبربريّة الخلاّقة القادرة على مدّ أوروبا كلّها لا رومانيا فحسب، بروح جديدة تنقذها من انحطاطها، بواسطة تنظيم الشباب على غرار الشبيبة الهتلريّة، وحثّهم على التخلّص من الأفكار البالية الهدّامة التي تدّعي أنّ الإنسان الفرد قيمة في ذاته، وتشجيعهم على منح الدولة الحقّ في أن تنشر رعبها الطوطاليتاريّ المخصب، مثل الدرع على جسد البلد، كي تنقذه من الإفلاس...

ذهب نقّاد كثيرون إلى أن انسياق سيوران وراء هذه الأفكار كان بسبب تمرّد الشباب في مثل عمره أو نتيجة تأثّره

بالفيلسوف ناي يونسكو. لكنّ الأرجح أنّه كان يرى نفسه كبيرًا ممكنًا وأنّه كان يبحث لنفسه عن وطن بحجمه، وأنّه وجد في النموذج الفاشيّ أو الهتلريّ طريقة يتحوّل بها الضعيف إلى قويّ. كتب يقول في نصّ بعنوان بلادي: «كنت أريدها قويّة شاسعة مجنونة، لكنّها كانت ضعيفة متواضعة خالية من كلّ ما يجعل للكائن مصيرًا يُذكَر...»

قد تتاح فرصة أخرى للإسهاب في شأن هذه العثرة السيورانيّة، لكنّ المهمّ هنا أن نشير إلى أهميّة هذا الكاتب من جهة هذه «العثرة» أيضًا. لماذا عاشها؟ وكيف تجاوزها إن كان قد تجاوزها فعلاً؟ وهل كانت فلسفة كتابته شكلاً من أشكال الاستمرار في الخطأ مع إظهار الاعتذار عنه؟

وهذا كلّه يهمّنا نحن العرب تحديدًا، لأنّ اللحظة التاريخيّة (اللاتاريخيّة) التي نعيشها منذ عقود أغرت الكثيرين بالذهاب في الاتّجاه نفسه وبطرق مختلفة، إلاّ أنّ العربيّ لا يملك إلاّ نادرًا شجاعة البوح والكشف والمصارحة. ويلات كثيرة عانيناها بسبب انتهاج الكثير من القيادات العربيّة (وحولها ما كان طلائع) حداثة تأخذ ما يحلو لها وتعتبر البقيّة غير صالحة، وعلى رأس ما هو غير صالح التعدّد. وغالبًا ما كان الشعار (العربيّ) قريبًا من عبارات سيوران السابقة على

الرغم من اختلاف الهويّات والسياقات. هل يكون للضعف الذي يريد أن يتحوّل إلى قوّة قانون عامّ يتجاوز الحدود؟ واليوم ونحن نعيش حرب حضارات، ألا يتربّص المأزق الذي عرفه سيوران بأكثر من مثقّف عربيّ؟

صحيح أنّه كتب بعد ذلك: «حين أفكّر في بعض حماقاتي السابقة لا أجد ما أقول. لا أفهم ماذا دهاني...» ولكن ماذا إذا كانت عبارته هذه لعبة من ألعابه الناريّة المعتادة؟

توفّي سيوران بعد أربعة وثمانين عامًا في ١٢جوان١٩٩٥ بباريس... إثر مرض عضال...

وقد ظلّت ترجمته إلى العربيّة محتشمة أو غير قادرة على إيصاله بالشكل الملائم، وهي في الأغلب مقتطفات في المجلاّت أو الصحف أو مقالات متفرّقة. وفيما عدا كتاب «توقيعات» الذي ضمّ مختارات من ثلاثة كتب لسيوران ترجمها الأستاذ لقمان سليم وراجعها الأستاذ وضّاح شرارة (دار الجديد ١٩٩١) فهذا حسب ظنّي أوّل كتاب لسيوران ينقل كاملا إلى العربيّة، ولعلّه يكون الحلقة الأولى من سلسلة تعريب أعماله الكاملة.

آدم فتحي (تونس ٢٠٠٢)

ضُمور الكلمة

في مدرسةِ ضعاف النُفُوس نتكوّن، نحن عبدَةُ الشذْرَةِ والنَدْبَة[١]. ننتمي إلى زمنٍ إكْلِينيكيّ لا اعتِبَارَ فيه إلاّ للـ «حالات[٢]». ننكبُّ على ما سكتَ عنهُ الكاتب، على ما كان يمكنُ أن يَقُول، على أغواره الصامتة. لو تَرَكَ عملاً فنيًا أو أفصح لنا عن نفسه لَظَفَرَ منّا بالنسيان.

لا يسحرنا إلاّ الفنّان اللامُتَحقّق...المهزوم الذي يَرْضَى لِخَيْباتِهِ أن تُهْدَر، الذي لا يعرف كيف يستَثْمِرُها.

*

عديدة هي الصفحات، عديدة هي الكتب التي كانت ينبوع أحاسيسنا، والتي صرنا نعيد قراءتها للنظر في نوعيّة الظروف أو خاصيّة النعوت؟

*

ثمّة في البلادة مقدار من الجدّ، لو وُجّه بشكلٍ أفضل، لأمكن له أن يُضاعف محصولنا من الروائع.

*

بدون شكّنا في أنفسنا تغدو شكوكيّتنا كلمة ميتة، حيرة مبتذلة، مذهبًا فلسفيًا.

*

لم نعد راغبين في تحمّل تبعات «الحقائق» ولا في أن نكون

ضحاياها أو شركاءها. أحلم بعالَمٍ نموت فيه من أجل فاصلة.

*

كم أحبّ أصحاب عقول الدرجة الثانية (جوبير[٣] خاصّة)، الذين عاشوا في ظلّ عبقريّة الآخرين، لفرط رهافة شعورهم، و امتنعوا عن عبقريّتهم الخاصّة لخوفهم من أن يكون لهم شيء من العبقريّة.

*

لو عكف موليير[٤] على هُوِيَّهِ السحيقة، لبدا حياله باسكال[٥]؟ بهاويته الخاصّة؟ في هيئة صحفيّ.

*

لا أسلوب مع اليقين.

الانشغال بتجويد القول من مميّزات الذين لا ينامون على عقيدة. إنّهم يتعلّقون بالكلمات، تلك الشبيهة بالواقع، في غياب الأرضيّة الصلبة، فيما الآخرون الأقوياء بقناعاتهم يهزؤون بمظهر الكلمات ويسترخون في الارتجال.

*

حذارِ ممّن يُعْرِضون عن الحبّ والطموح والمجتمع، فلا شكّ أنّهم سيثأرون لتخلّيهم عن كلّ ذلك.

*

تاريخ الأفكار هو تاريخُ ضغينةِ اللائذين بالعزلة.

*

لو عاش بلوتارك[٦] اليوم لكتب «حيوات الفاشلين المُتوازِيَة».

*

الرومانسيّة الإنكليزيّة كانت خليطًا سعيدًا من الأفيون[٧] والمنفى والسلّ. الرومانسيّة الألمانيّة كانت خليطًا من الكحول والريف والانتحار.

*

كان على بعض العقول أن يعيش في مدينة ألمانيّة أثناء العصر الرومانسيّ. من السهل تخيّل واحد مثل جيرار فون نرفال في توبنغن أو هايدلبرغ[٨].

*

لا حدود لقدرة الألمان على التحمّل، وهذا حتّى في الجنون. نيتشه تحمّل جنونه طيلة إحدى عشرة سنة، هولدرلين[٩] طيلة أربعين.

*

لوثر[١٠]، الصورة المسبقة للإنسان الحديث، تَمَثَّلَ أنواع اختلال التوازن كلّها، باسكال وهتلر كانا يتساكنان داخله.

*

«...الحقيقيّ وحده جدير بالمحبّة.» من هنا نشأت جميع نقائص فرنسا: إعراضُها عن الغامض والضبابيّ، ضدّيّتُها

للشعر، ضدّيّتُها للميتافيزيقا.

*

كان على بوالو[11] أن يُثقِل على شعب بأسره، أن يقمع عبقريّته. وقد مضى في ذلك إلى أبعد من ديكارت نفسه.

*

الجحيم: لا يقلّ دقّة عن محضر جلسة.
المطهر: كاذب مثل كلّ إلماح إلى السماء.
الفردوس: بسطة تخيّلات وتوافه.
مثلّث دانتي[12]: أفضلُ إعادة اعتبار للشيطان قام بها مسيحيّ.

*

شكسبير: موعدٌ بين وردة ومقصلة.

*

ما مِنْ طريقٍ إلى الفشَل في الحياة أَقْصَر من أن تقتحم الشعر دون دعم من الموهبة.

*

وحدها العقول السطحيّة تتقدّم من الفكرة بلطف.

*

اعتبارُه الخيبات الإداريّة من بين الأسباب المبرّرة للانتحار، يبدو لي أعمق شيء قاله هاملت[13].

*

لمّا كانت طرائق التعبير قد استُهلِكت فقد اتّجه الفنّ ناحية اللامعنى، ناحيةَ كونٍ شخصيّ ومستعص على التوصيل. إنّ أيّ ارتعاشة قابلة للفهم في الرسم كانت أو في الموسيقى أو في الشعر، ستبدو لنا عن حقّ شيئًا باليًا أو مبتذلاً. الجمهور زائل عمّا قريب، ولاشكّ أنّ الفنّ لاحقٌ به عن كثب.

الحضارة التي بدأت بالكاتدرائيّات لابدّ أن تنتهي بالهرمسيّة والشيزوفرينيا.

*

حين نكون على بعد آلاف الأميال من الشعر، نظلّ نساهم فيه بتلك الحاجة المفاجئة للعواء؟ آخر درجات الغنائيّة.

*

أن يكون المرء راسكولنيكوف[١٤] دون عذر الجريمة.

*

لا يعتني بالأمثال والأقوال المأثورة إلاّ من عرف الرعب وسط الكلمات، والفزعَ من التداعي مع جميع الكلمات.

*

آه لو كان في وسعنا العودة إلى تلك العصور حين لا مفردةَ تعوقُ الكائنات، العودة إلى اقتضاب الصيحة وفردوس البلادة وذاك الذهول الفَرِحِ لِما قَبْلَ اللغة؟

*

من السهل أن يكون المرءُ عميقًا، يكفي أن يستسلم لفيض ثغراته الخاصّة.

*

توجعني كلّ كلمة، ومع ذلك كم سيلذّ لي أن أنصت إلى الزهور تثرثر حول الموت.

*

نماذج للأسلوب: الشتيمة، البرقيّة، شاهدة القبر.

*

الرومانسيّون كانوا آخر المختصّين في الانتحار. بعدهم صار الانتحار عرضة إلى عدم الاتقان. من أجل تحسين نوعيّته، نحن في حاجة كبيرة إلى مرضٍ جديد للعصر.

*

تجريدُ الأدب من أقنعته، رؤيةُ وجهه الحقيقيّ، أمرٌ لا يقلّ خطورة عن حرمان الفلسفة من رطانتها. هل تقتصر إبداعات الفكر على تجميل التفاهات؟ ألا وجود لجوهرٍ مَا إلاّ خارج المنطوق؟ في التكشيرة أو التخشّب؟

*

الكتاب الذي يقوّض كلّ شيء ثمّ لا يقوّض نفسه بعد ذلك، هو كتاب قد أغاظنا دون جدوى.

*

ها نحن مونادات[١٥] مشتّتة، نشهد نهاية الأحزان الحذرة والانحرافات المتوقّعة. ثمّةَ أكثر من علامة تنذر بهيمنة الهذيان.

*

لا مصادر للكاتب أفضل من أسباب إحساسه بالعار. الكاتب الذي لا يكتشف في ذاته أسبابًا للشعور بالخزي أو يتهرّب من هذه الأسباب، ليس أمامه إلاّ السرقة أو النقد.

*

مَا مِنْ مواطنٍ غربيّ مهموم إلاّ ويُذَكِّرُنَا ببطلٍ من أبطال دستويفسكي، لولا أنّه يملك رصيدًا في بنك.

*

على الدراماتورج الجيّد أن يمتلك حسّ الجريمة. تُرَى هل ثمّة اليوم بعد الإليزابيتيّين[١٦] من ظلّ يحذق قتل شخوصه؟

*

تعوّدت الخليّة العصبيّة على كلّ شيء حتّى بات علينا أن نيئس من تصوّر أيّ حماقة يمكنها إذا دخلت الأدمغة، أن تحملها على الانفجار.

*

منذ بنيامين كونستان[١٧] لا أحد عثر من جديد على «نبرة» الخيبة.

*

على كلّ من استطاع تملّك المبادئ الأولى لكره البشريّة، إذا أراد أن يذهب إلى أبعد من ذلك، أن يلتحق بمدرسة سويفت[١٨]: هناك سيتعلّم كيف يمنح احتقارَه البشريّةَ حِدّةَ الألم العصبيّ.

*

مع بودلير اقتحمت الفيزيولوجيا مجال الشعر، مع نيتشه اقتحمت مجال الفلسفة، وبهما معًا رُفعت اضطرابات الجسد إلى مرتبة النشيد والمفهوم. أُلقي على عاتقهما وقد أُطرِدا من العافية أن يضمنا للمرض حياةً مهنيّة.

*

غموض: كلمة نستعملها لخداع الآخرين، لإيهامهم بأنّنا أكثر عمقًا منهم.

*

إذا أمكن لنيتشه، بروست، بودلير أو رامبو[١٩]، أن يتصدّوا لتقلّبات الموضة، فإنّهم مدينون بذلك إلى وحشيّتهم اللامبالية، إلى جراحتهم الشيطانيّة، إلى سخائهم بالسمّ. ما مِنْ شيءٍ يجعل أثرًا يدوم ويمنعه من التقادم سوى شراسته. تأكيد غير مبرّر؟ أنظروا إلى مجد الإنجيل، أليس الكتاب العدوانيّ والمسموم بامتياز؟

*

الجمهور يتهافت على ما يُسمّى بالكتّاب الإنسانيّين. هو واثق بأنّه لا يخشى منهم شيئًا. إنّه يعرف أنّهم وقد توقّفوا؟ مثله؟ في منتصف الطريق، سيقترحون عليه صلحًا مع المستحيل، رؤيةً منسجمة للفوضى.

*

خلاعةُ البورنوغرافيّين[٢٠] الشفهيّة ناشئةٌ في الأغلب عن إفراط في الحياء، عن الخجل من تعرية «روحهم» وخاصّةً من تسميتها: ما من كلمة أكثر فحْشًا من هذه في أيّ لغة.

*

أن تختفي حقيقةٌ خلف المظاهر هو في المحصّلة أمر ممكن. أمّا أن يكون في وسع اللغة التعبير عن هذه الحقيقة، فهو أمرٌ من المثير للسخرية أن نتمنّاه. لماذا إذَنْ نثقل أنفسنا بهذا الرأي دون ذاك؟ ولماذا نجفل أمام المبتذل أو اللامعقول؟ وأمام واجب أن نقول وأن نكتب ما عنّ لنا من تفاهات؟

إنّ أدنى قدر من الحكمة سيجبرنا آنذاك على مساندة النظريّات كلّها في الوقت نفسه، بانتقائيّة السخرية والتخريب.

*

الخوف من العقم يدفع الكاتب إلى أن يُنتج فوق طاقته، وأن يضيف إلى الأكاذيب المعيشة أكاذيب أخرى لا تُحصى

يستلفها أو يختلقها اختلاقًا. تحت كلّ «أعمال كاملة» يَقْبَعُ دجّال.

*

على المتشائم أن يخترع كلّ يوم أسبابًا أخرى للاِستمرار في الوجود: إنّه ضحيّة من ضحايا «معنى» الحياة.

*

ماكبث: إنّه رواقيّ الجريمة، ماركوس أوريليوس(٢١) بخنجر.

*

العقل هو المستفيد الكبير من هزائم الجسد. يثري على حسابه، يسلبه، يهلّل لمآسيه، يعيش على اللصوصيّة؟ الحضارة مدينة بنجاحها لقاطع طريق.

*

«الموهبةُ» أضمن الوسائل لتزييف كلّ شيء، لتشويه الأشياء وتكوين نظرة خاطئة عن الذات. الحياة، بل قل الوجود الحقيقيّ، وحدهم يملكونه أولئك الذين لم تنكبهم الطبيعة بأيّ موهبة. من ثمّ سيكون من العسير تصوّرُ عالم أكثر زيفًا من العالم الأدبيّ، وإنسانًا أكثر بعدًا عن الواقع من رجل الأدب.

*

لا خلاص إلاّ في «محاكاة» الصمت. لكنّ لَغْوَنا أسْبَقُ من الولادة. نحن جنس من المهذارين والمَنَوِيّات الثرثارة، موثوقون «كيميائيًا» إلى الكلمة.

*

ملاحقةُ الدالّ على حساب المدلول. اعتبارُ الخطاب غاية في حدّ ذاته. تفشّي الهوس الكلاميّ حتّى لدى الفلاسفة. الحاجةُ إلى التجدّد على مستوى الظواهر- تلك مميّزات حضارة يتقدّم فيها النحو على المُطلق والنحويّ على الحكيم.

*

غوته[٢٢]، الفنّان الكامل، هو نقيضنا. إنّه قدوة لغيرنا. لقد كان غريبًا عن «النقصان» ذاك النموذج المثاليّ الحديث للكمال، ومِنْ ثَمَّ كان يرفض أن يفهم خطورة الآخرين. أمّا ذووه فقد استوعبهم بشكل جعله لا يعاني منهم البتّة. إنّ مصيره المُشرق يثير يأسنا. وإنّك بعد أن تفتّش فيه - عبثًا - عن أسرار رائعة أو خسيسة، لا تملك إلاّ أن تستسلم لكلمة ريلكه[٢٣]: «ليس لي عضوٌ صالح لغوته.»

*

لن نؤاخذ القرن التاسع عشر بما فيه الكفاية، على كونه شمل برعايته تلك الزمرة السافلة من الشرّاح، تلك الآلات المخصّصة للقراءة، ذاك التشوّه العقليّ الذي يجسّده الأستاذ - رمز انحطاط الحضارة وتدنّي الذوق وتفوّق الجهد على النزوة.

*

أن نرى كلّ شيء من الخارج، أن نصطنع نسقًا لِمَا لا يُوصَف، أن لا ننظر إلى شيء في وجهه، أن نكتفي بِجَرْدِ وجهات نظر الآخرين. كلّ تعليق على أثَرٍ هو عملٌ فاسد أو غير مجدٍ، لأنّ كلّ ما هو غير مباشرٍ هراء.

كان الأساتذة في ما مضى يفضّلون التكالب على التيولوجيا. على الأقلّ، كان لهم عذر تعليمنا المطلق. أمّا في عصرنا فلم يعد في وسع شيء أن ينجو من كفاءاتهم القاتلة.

*

ما يميّزنا عمّن سبقنا إنّما هو عدم كلفتنا حيال المجهول. بل إنّنا وصلنا إلى حدّ إعادة تسميته: هكذا وُلد العبث.

*

خدعة الأسلوب: إعطاءُ الهموم اليوميّة مجرى غير مألوف، تجميل المتاعب التافهة، تأثيثُ الخواء، تحقيق الوجود «بواسطة الكلمة»، بواسطة شقشقة الشكوى أو الاستهزاء.

*

من غير المعقول ألاّ يكون احتمالُ وجود كاتبِ سيرة، قد دفع بعضهم إلى التخلّي عن أن تكون له حياةٌ أصلاً.

*

لمّا كنتُ ساذجًا بما يكفي، للذهاب في رحلة بحث عن الحقيقة، فقد قمت ـ عبثًا ـ بجولة حول العديد من الطرق والمذاهب. كنت

بدأت بترسيخ قدمي في الشكوكيّة حين خامرتني فكرة الاسترشاد بالشعر كملاذ أخير: من يدري؟ لعلّي أحقّق فيه كسباً. لعلّه يكشف لي من وراء اعتباطيّته عن بعض التجلّيات الحاسمة. ملاذ وهميّ. كان الشعر قد ذهب أبعد منّي في النفي والإنكار. لقد جعلني أخسر حتّى شكوكي.

*

بالنسبة إلى من استنشق الموت، كم هي مؤسفةٌ روائح الكلمة.

*

ما دامت الهزائم حديث الساعة فمن الطبيعيّ أن يستفيد منها الله. ها هو يتمتّع بشيء من الرواج بفضل المغرورين الذين يرْثُون لحاله أو يفعلون به الأفاعيل. ولكن إلى متى يا تُرى سيظلّ «مَثارَ اهتمام»؟

*

«كان موهوباً إلاّ أنّه نُسِيَ تماماً ولم يعد يهتمّ به أحد - ذاك هو العدل: لأنّه لم يتّخذ الاحتياطات الكافية كي يُساء فهمه».

*

لا شيء يصيب العقل بالجفاف مثل نفوره من تصوّر أفكارٍ مبهمة.

*

ماذا يصنع الحكيم؟ يستسلم إلى الفرجة والأكل إلخ. إنّه

يرضخ بالرغم عنه لهذا «الجرح ذي الفتحات التسع» الذي هو الجسد حسب البهاجافادجيتا[٢٤] ـ الحكمة؟ أن نتحمّل بكبرياءٍ المذلّةَ التي تسلّطها علينا ثقوبُنا.

*

الشاعر: ماكر يستطيع أن يتلوّى من البرد إلى حدّ المتعة. أن يجدِّ في مطاردة الحيرة وأن يحصل عليها بكلّ الوسائل. ثمّ تأتي الأبديّة الساذجة في ما بعدُ فترثي لحاله.

*

الأعمال الفنيّة كلّها تقريبًا مصنوعة من لمعات محاكاة، من ارتعاشات محفوظة ونشوات مسروقة.

*

باعتبار جوهره قائمًا على الإسهاب، يقتات الأدب من ترهّل الألفاظ، من سرطان الكلمة.

*

أوروبّا لم تتوفّر بَعْدُ على ما يكفي من الأنقاض كي تُزهر فيها الملحمة، إلاّ أنّ كلّ شيء يدفع إلى التوقّع بأنّها غيرةً من طروادة واستعدادًا لتقليدها، ستنتج تيمات من الأهميّة، بحيث لن يمكن للشعر والرواية أن يفيا بالحاجة.

*

لو أنّه لم يُحافظ على وهم أخير لأعلنتُ انتمائي عن طواعية إلى

عمر الخيّام، إلى أحزانه التي لا نظير لها... إلاّ أنّه ظلّ «يؤمن» بالخمر.

*

أفضل ما فيّ، أي هذا القليل من النور الذي يبعدني عن كلّ شيء، أنا مدين به إلى محاوراتي النادرة مع بعض السفلة بالغي المرارة، بعض الصعاليك الذين لا عزاء لهم، والذين ذهبوا ضحيّة صرامة كَلَبيّتهم[٢٥]، فلم يعودوا قادرين على التعلّق بأيّ رذيلة.

*

قبل أن تكون خطأً في المضمون، كانت الحياةُ خطأً في الذوق، لم يفلح الشعر ولا حتّى الموت في تصحيحه.

*

في قاعة النوم الكبيرة هذه، كما يسميّ نصّ طاويّ[٢٦] الكونَ، الكابوسُ هو الطريقة الوحيدة للوعي.

*

في هموم الفكر هيئةٌ قد نبحث عنها عبثًا في عذابات القلب. الشكوكيّة أناقةُ الحيرة.

*

أن تكون إنسانًا حديثًا هو أن تبحث عن عقّار لِمَا أفسده الدهر.

*

تراجيكوميديا[٣٧] المُريد: حولّتُ أفكاري إلى غبار للمزايدة على الوُعّاظ الذين لم يعلّموني غير تفتيتها.

هوامش "ضمور الكلمة":

١- اخترنا كلمة نَدْبة (أثَرُ الجرح الباقي على الجلد) لترجمة كلمة Stigmate، إلاّ أنّ اقتران هذه الكلمة في مطلع هذا الفصل بكلمة شذرة Fragment، مع ما يبدو بينهما من تباعد، قد يستوجب شيئًا من التبسّط في الشرح، نظرًا لكون هذا الاقتران يقع في المحور من رؤية سيوران لعمليّة الكتابة. وليس من باب الصدفة أن يبدأ كتابه بهذين الكلمتين «المفتاحين». تشير كلمة Stigmate إذا وردت بصيغة الجمع إلى علامات مُعَيّنة تظهر على أجساد البعض، بالصورة نفسها وفي المواقع نفسها التي ظهرت بها على جسد المسيح. ومن بين الذين ظهرت لديهم هذه العلامات، على سبيل المثال، القدّيس فرنسيس الأسزي ١١٨٢-١٢٢٦م (Saint Fraçois d'Assise . إلاّ أنّ سيوران أورد هذه الكلمة في صيغة المفرد، ممّا يدفعنا إلى عدم الاقتصار في فهمها على السياق التيولوجيّ البحت، على الرغم من أنّ هذا السياق لا يستبعد دلالة فنيّة غير غريبة عن سيوران. فكلمة Stigmate ترد أيضًا في إطار المواجهة التي تمّت داخل المسيحيّة عند طرحها مسألة الفنّ، فنّ التصوير خاصّة، بين ما يمكن تسميته بـ«المحاكاة الشيطانيّة» Diabolique Mimèsis، وما يُسمّى بـ «مشابَهَةُ الخضوع» أو «التصاغر» Christi (Stigmate)Imitatio، القائمة على تسلُّط فكرة «التوبة» والتكفير عن الذنوب. هنا نجد سيوران غير بعيد. فهو يرى أنّ المعرفة الوحيدة التي قد يجوز للإنسان الطموح إلى اكتسابها، هي معرفةُ أنّ هذا العالم ليس سوى ثمرة سقوط. وأنّ الحياة بما فيها من عذاب، ليست سوى تكفير عن هذا السقوط،

وآنّ في مواجهة كلّ ذلك سبيلُ الخلاص. وسيوران سيّد المفارقات. فكما أنّه على مستوى الأفكار يظهر التمرّد على التيولوجيا بالحماس نفسه الذي يعبّر عن رغبته في الالتحام بالله، فإنّه على مستوى اللغة كثيرًا ما يستعمل الكلمات التي قد تعني الشيء وضدّه أيضًا، بل إنّه كثيرًا ما يعود إلى لغة القرن الثامن عشر كي يصنع حِيَلَهُ اللُّغويّة الماكرة، وينحت له ما شاء من التراكيب الخاصّة. لذلك فهو في استعماله كلمة Stigmate ، لم يكن غافلاً عن دلالاتها أخرى، التي من بينها أنّها الأثر الذي يتركه الجرح، وأنّها علامة من العلامات الدالّة على مرض جسديّ أو نفسيّ، ولعلّ هذه الدلالة جزء لا يتجزّأ من قصد سيوران في هذا الكتاب، فهو بذلك يقترب بنا من معنى الشذرة، التي قد تكون قطعة صغيرة من شيء أكبر، أو هي جزء من شيء تمّ تهشيمه، ولعلّها مقطع من كتاب، أو جزء من أثر فنّي فقدت بقيّة أجزائه، إلخ... ففي كلّ الحالات نحن أمام أثر وجزء وشاهد على غائب. لكنّه «الأثر» الذي قد ينبئ عن «الخطوة» دون أن يكرّرها، «الجزئيّ» الذي قد يغني عن «الكليّ»، «الشاهد» الذي قد تكون ميزته الأساسيّة في «تغييب الغائب». وهكذا يرى سيوران الكتابة. مجرّد شذرات أو ندوب. إنّه ضدّ «البُنية المُحكمة» والنصوص الطويلة الكاملة، وضدّ كلّ أنواع القوالب والأنماط و«الصِيَغ الجاهزة» Formules Les. أليس هو القائل: **تحت كلّ صيغةٍ ترقد جثّة**. إنّه يفضّل اللُّمَعَ والبرقيّات، الشبيهة بالحِكَم والأمثال، يوجّهها إلى... لا أحد بالتحديد. لكنّه (والعبارة له) **يوجّهها كما تُوَجَّهُ الصفعة**. ثمّ إنّه يرفض هذه «الصيغ» أيضًا، لذلك فإنّ حِكَمَهُ ليست حِكمًا، وأمثالَهُ ليست أمثالاً... إنّها جمل تبدأ في كثير من الأحيان دون أن تنتهي... أو هي تنتهي كيفما اتّفق، عن قصد وإصرار. إنّ لسيوران عبارة تشبه البرقيّة، أو الشتيمة، أو شاهدة القبر، وهي أشبه بالتمتمة أحيانًا. وهو ينحت لغة تجعل من تمنّعها عن الاكتمال حلية، بل آية في الاكتمال. لغة تجعل من نقصانها سبيلاً للخلاص. في هذا السياق نفهم قوله: **إليك بقاعدة ذهبيّة: أن تترك بَعدك صورةً عنك ناقصة**. إنّه كائن النقصان بامتياز. وكاتب النقصان الأمثل. كائنٌ يُفَجِّرُهُ النقصان، فإذا

هو ينفجر بواسطة الكلمات، وإذا كلماته شظاياه: من ثمَّ الشذرات ومن ثَمَّ الندوب. ولعلّه في ذلك غير بعيد عن سلالة الكتّاب الانتحاريّين، ومن بينهم بودلير ونيتشة (انظر مقدّمتنا ليوميّات بودلير، دار الجمل ١٩٩٩). ولعلّ جميعهم يشرب من النبع نفسه، نبع ما قبل السقراطيّين، بعيدًا عن النسقيّة، حين كانت السيادة للشذرة فكرًا ونصًا.

٢- يستعمل سيوران هذه الكلمة في معنى الحالات المرَضيّة الاستثنائيّة التي تثير الأسئلة، مقابل الحالات العاديّة.

٣- جوبير (Joubert): داعية أخلاقيّ فرنسيّ (١٧٥٤-١٨٢٤م) من أعماله: أفكار، محاولات، حِكَم...

٤- موليير (Molière): من اللافت للنظر التشابه الكبير بين رأي سيوران ورأي بودلير في هذا المسرحيّ الفرنسيّ المعروف (١٦٢٢ - ١٦٨٥م).

٥- باسكال (Pascal): كان هذا الكاتب والفيلسوف وعالم الرياضيّات وعالم الفيزياء الفرنسيّ الشهير (١٦٢٣-١٦٦٢م) معروفًا بعدم اطمئنانه إلى يقين وإعادة نظره الدائمة في كلّ شيء، ولعلّ من المفيد، في الاقتراب أكثر من "طبيعة" سيوران، أن نراه يتحدّث عن باسكال بهذا الشكل، في هذه الشذرة، ثمّ يكاد يستنسخ فكرة باسكاليّة كاملة في الشذرة الموالية.

٦- بلوتارك (Plutarque): كاتب إغريقيّ (٥٠- ١٢٥م) سافر إلى مصر وأقام عدّة مرّات في روما وترك العديد من المؤلّفات، تُقسّم مؤلّفاته عادة إلى قسمين كبيرين: "الأعمال الأخلاقيّة"، و"الحيوات المتوازية"، وهذا القسم الثاني هو مجموعة من سير عظماء اليونان والرومان، تناولها بلوتارك بشكلٍ متوازٍ، أي بدراسة سيرتين كلّ مرّة، لثنائيّ معيّن: ديموستين وشيشرون، الإسكندر وقيصر، إلخ...

٧- فضّلنا استعمال كلمة أفيون لتوضيح المعنى، وإن كان سيوران قد استعمل كلمة اللودانوم Laudanum، وترجمتُها الحرفيّة: صبغة الأفيون. صبْغةٌ كحوليّة من الأفيون الزعفرانيّ، معطّرة بالقرفة أو القرنفل، استعملت كدواء، وأصبحت من المقبّلات المحبوبة في القرن التاسع عشر.

٨- جيرار دي نرفال (Gérard de Nerval) كاتب فرنسيّ (١٨٠٨-١٨٥٥م) قام بترجمة عمل غوته الكبير "فاوست" سنة ١٨٢٨، كما ترك عددا من المؤلّفات اعتُبرت فتحًا للطريق أمام بودلير أوّلاً، ثمّ السرياليّة فيما بعد. انتحر شنقًا في أحد شوارع باريس. وقد استعمل سيوران كلمة Von مكانَ De للربط بين الاسم واللقب، من باب السخرية في سياق ذكره لمدينتي Tuebingen و Heidelberg

٩- سنرى على امتداد هذا الكتاب وغيره من أعمال سيوران، تأثير فريدريك نيتشة (الفيلسوف الألماني المعروف ١٨٤٤-١٩٠٠م) وحضوره الكبير في فكر الكاتب وأسلوبه. خذ مثلاً عبارة نيتشة: مِن بين أعداء الحقيقة، القناعاتُ أخطر من الأكاذيب، التي نجدها في هذا الكتاب على أكثر من صيغة. أمّا هولدرلين (Hoeldrelin) الشاعر الألماني الشهير (١٧٧٠-١٨٤٣م) الذي ارتقى بالرومانسيّة إلى التصوّف، فهو أيضًا يتخلّل نسيج النصّ السيوراني. إضافة إلى كونه مثل نيتشة، وربّما أكثر منه، عاش سنوات طويلة من عمره ضحيّة الاختلال العقليّ، وكتب أثناء ذلك نصوصًا تُعتبر اليوم من أجمل ما كُتب في الشعر.

١٠- مارتين لوثر (Martin Luther) عالم لاهوتي ومصلح ألماني (١٤٨٣-١٥٤٦م) كان منشغلاً بفكرة الخلاص، وأشهرت روما الحرب عليه، وكتب الكثير ضدّ الكاثوليكيّة من جهة، وضدّ الثورات الاجتماعيّة من جهة أخرى. ومن اللافت أنّ سيوران يتبنّاه وينقلب عليه في الوقت نفسه، في أكثر من موضع. وذلك شأنه مع أكثر من مفكّر، ومع أكثر من فكرة.

١١- الأرجح أن يكون المقصود هنا هو نيكولا بوالو (Nicolas Boileau) الكاتب الفرنسيّ (١٦٣٦-١٧١١م) الذي كان يقلّد هوراس في كتاباته الساخرة والوعظيّة، وتحزّب إلى القدماء في معركتهم ضدّ المجدّدين في ذلك الوقت، مساهمًا في تحديد معالم "الأدب النموذجيّ" من زاوية النظر الكلاسيكيّة. ولعلّ سيوران وجد في ذلك تضييقًا لا يقلّ عمّا قام به الفيلسوف الفرنسيّ المعروف رينيه ديكارت ١٥٩٦-١٦٥٠م (René Descartes) حين

حدّد معالم الكوجيتو. أمّا إيتيان بوالو الذي كان رئيس شرطة باريس (١٢٧٠م) وألّف "كتاب الحِرَف" فلا أعتقد أنّه المقصود بهذه الشذرة.

٢- ربّما لا تخلو هذه الشذرة من إشارة من بعيد إلى أنّ دانتي آليغياري (Dante Alighieri) الكاتب الإيطاليّ الشهير (١٢٦٥-١٣٢١م) الذي ألّف الكوميديا الإلهيّة، قد لعب أيضًا دورًا سياسيًا بارزًا في مسقط رأسه، مدينة فلورنسة.

١٣- فضّلنا عبارة الخيبات الإداريّة على عبارة "الفشل في العمل" مثلاً، على الرغم من بعدها في الظاهر عن "سياق" شكسبير التاريخيّ، لأنّ سيوران استعمل عبارة Déboires administratifs، وقد أضاف لشرحها جملتين أخريين بالإنكليزيّة، مقتطعتين من "هاملت":

The law´s delay, The insolence of office

١٤- راسكولنيكوف (Raskolnikov) بطل الكاتب الروسيّ الكبير فيدور ميخايلوفيتش دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١م) في روايته "الجريمة والعقاب" الصادرة سنة ١٨٦٦م، وهو نموذج للإنسان الذي لا يخلو من مشاعر طيّبة، إلاّ أنّ استعماله الخاطئ لعقله يقوده إلى الجريمة، وغياب الإحساس بالندم يجعله يفقد القدرة على العيش مع بني جنسه، إلى أن يكتشف ذات يوم أنّ طريق خلاصه ليس سوى الاعتراف وقبول العقاب.

١٥- المونادات، نسبة إلى موناده (Monade): الجوهر الفرد وأحد عناصر الوجود الأوّليّة في فلسفة المفكّر وعالم الرياضيّات الألماني لايبنيتز (١٦٤٦-١٧١٦م) G.W.Leibniz

١٦- يُطلق اسم المسرح الإيليزابيتي (Théatre élisabethain) على الأعمال المسرحيّة التي ازدهرت في عهد الملكة إليزابيت الأولى (١٥٥٨-١٦٠٣م) والتي استمرّت حتّى إغلاق المسارح في الشهر التاسع من سنة ١٦٤٢ مع انتصار البيوريتانيّين. ويُعتبر شكسبير أبرز ممثّلي هذا المسرح. وقد فضّلنا الإبقاء على كلمة "دراماتورج" Dramaturge، كما استعملها سيوران، الذي ربّما أراد الإشارة ولو من بعيد إلى ما ذهب إليه عدد من الدارسين، من أنّ

شكسبير لم يكن "كاتباً"، بقدر ما كان رجل مسرح يعرف كيف "يُمسرح" النصوص أو الحكايات...

١٧- بنيامين كونستان (Benjamin Constant) رجل سياسة وكاتب فرنسيّ (١٧٦٧- ١٨٣٠م)، كان صديق السيّدة دي ستايل (Mme de Stael)، ونشر سنة ١٨١٦ أحد أشهر كتبه، رواية "أدولف" (Adolphe).

١٨- قد يكون من الطريف المقارنة بين عبارة بودلير في اليوميّات (دار الجمل ١٩٩٩)، ورأي سيوران في هذه الشذرة، بخصوص جوناتان سويفت (Swift Jonathan) الكاتب الإيرلندي (١٦٦٧-١٧٤٥م)، المعروف خاصّة برحلات غوليفر (Les Voyages de Gulliver) التي ظهرت بداية من سنة ١٧٢٦م.

١٩- يبدو هذا الجمع بين كتّاب من أجيال ومذاهب مختلفة، بسبب اشتراكهم في المرض بالنسبة إلى الشذرة السابقة، وبسبب تجاوزهم للـ"موضة" في هذه الشذرة، بروست Marcel Proust الفرنسي (١٨٧١-١٩٢٢م) صاحب "في البحث عن الزمن الضائع"، وسَلَفِه رامبو (١٨٥٤-١٨٩١م) صاحب "القارب السكران" و"فصل في الجحيم"، يبدو ذلك أقرب إلى فكر بودلير وإلى فكر نيتشة أيضاً، على الرغم من تعمّد سيوران إخفاء "نصوصه الغائبة".

٢٠- فضّلنا استعمال كلمة البورنوغرافيّين Pornographes، نسبةً إلى البورنوغرافيا (الخلاعيّة في الفنّ أو الأدب)، لأنّها بدت لنا أكثر دقّة.

٢١- ماكبث (Macbeth) عنوان إحدى مسرحيّات شكسبير، التي تستعرض سيرة حياة فارس اسكوتلنديّ (١٠٤٠-١٠٥٧م)، استطاع أن ينتزع العرش باغتيال ملكِ ذلك العهد دونكان الأوّل، إلاّ أنّه سقط بدوره قتيلاً على يد ابنِ دونكان نفسه. وقد كان عهد ماكبث مسرحاً لحرب دون هوادة، تماماً مثل عهد مارك أوريل Marc Aurèle (هكذا كتب سيوران اسم ماركوس أوريليوس) الإمبراطور الروماني (١٢١-١٨٠م) الذي خاض الكثير من الحروب والذي اهتمّ بالفلسفة وترك مؤلّفات تعبّر عن انتمائه إلى "الرواقيّة".

٢٢- قد يكون من المفيد، المقارنة بين رأي سيوران في غوته، شاعر ألمانيا الفذّ (١٧٤٩-١٨٣٢م) ونظرة بودلير إليه كما تبدو في اليوميّات (دار الجمل

١٩٩٩).

٢٣- لعلّ قراءة قصائد راينر ماريا ريلكه Rainer Maria Rilke هذا الشاعر النمساويّ الكبير (١٨٧٥-١٩٢٦)، أو بعض نصوصه النثريّة، وخاصّة "رسائل إلى شاعر شابّ"، تساعد على تلمّس القرابة الكبيرة بين موقفه من الموت ونظرة سيوران إلى الموضوع نفسه.

٢٤- البهاجافادجيتا (La Bhagavad-Gita): نشيد هنديّ طويل يعني اسمُه في السنسكريتيّة "نشيد الإنسان السعيد"، وهو أثرٌ فلسفيّ دينيّ، يعود في نظر العديد من المؤرّخين إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وهو أحد النصوص الأساسيّة الثلاثة التي تستند عليها "الهندوسيّة". والبهاجافادجيتا جزء من الكتاب السادس للماهابهاراتا (Mahabharata)، وهو عبارة عن حوار بين كريشناKrishna التجلّي الأعلى للألوهيّة، وأرجونا Arjuna أحد الأمراء المحاربين. وخلاصة هذا الحوار أنّ في وسع الإنسان إذا عرف الله ونال بركته، أن يتخلّص من عبوديّة المادّة. وقد عرف الغرب هذا النصّ عن طريق الترجمة في بداية القرن التاسع عشر، وكان له تأثير كبير على العديد من الفلاسفة، نذكر من بينهم شوبنهاور.

٢٥- نسبة إلى الكلبيّة Cynisme، المذهب الفلسفيّ الذي يحتقر أصحابه التقاليد والرأي العامّ والأخلاق الشائعة.

٢٦- طاويّ (Taoiste) نسبة إلى الطاو (Tao)، ومعناه: المبدأ الذي ينتظم على أساسه الكون، وهو من ثمّ النظام المُطلق الذي يتحقّق ضمنه الكمال في كلّ شيء. وقد اعتبرت "طاويّة"، نصوص متصوّفة الصين القدامى لقرنين قبل الميلاد، إلاّ أنّ أهمّ الآثار التي بين أيدينا اليوم: "كتاب الطاو" لـ "لاو تسي". ولعلّ جوهر الفكر الطاويّ يتمثّل في كون الحريّة والاستقلال الذاتيّ، يمكن الحصول عليهما بواسطة التماهي التامّ مع حركة الكون الطبيعيّة الكبرى.

٢٧- فضّلنا الاقتداء بسيوران، واستعمال هذه العبارة لترجمة comedie-Tragi.

لصّ الأغوار

على كلّ فكرة أن تذكّر بأنقاض ابتسامة.

*

بحذر شديد أحوم حول الأعماق، أختلس منها بعض الدوار ثمّ أنفلت مثل لصّ الأغوار.

*

لا مفرّ لكلّ مفكّر في بداية حياته المهنيّة، من الاختيار بين الجدل والنواح.

*

قبل أن تولد الفيزياء والبسيكولوجيا بكثير، كان الألم يفتّت المادّة وكان الحزن يفتّت الروح.

*

ذلك النوع من الضيق الذي ينتابنا حين نحاول أن نتصوّر الحياة اليوميّة لبعض أصحاب العقول الكبيرة. مع الساعة الثانية بعد الزوال، ترى ماذا كان يصنع سقراط[1]؟

*

ما كنّا لنَعْتَنِقَ الأفكار بكلّ هذه السذاجة لولا نِسْيانُنا أنّها وليدة حيوانات ثدييّة.

*

الشعر الجدير بهذه التسمية يبدأ بتجربة الاصطدام بالقدر.

وحدهم الشعراء الرديئون يشعرون بالحريّة.

*

لم أجد في عمارة الفكر درجةً أريح عليها جبيني. في المقابل، أيّ وسادة هو الكاوس[٢].

*

لمعاقبة الآخرين على أنّهم أسعد منّا حالاً، لا نجد أفضل من أن نلقّحهم بوساوسنا، ذلك أنّ أوجاعنا؟ للأسف - ليست معدية.

*

لا شيء يطفئ ظمئي إلى الشكّ. آه لو كانت لي عصا موسى كي أفلق عن شكوكي الصخرَ نفسه.

*

باستثناء تضخيم الذات، ثمرة الشلل العامّ، لا دواء لنوبات التلاشي والاختناق بالعدم ولا علاج للرعب من كونِنا لسنا سوى روح في بَصْقَة.

*

إذا كنتُ من الحزن قد استخرجتُ بالكاد بعض الأفكار، فلأنّني قد أحببته أكثر من أن أسمح للعقل بإفقاره إذا دخل عليه.

*

الموضة الفلسفيّة تفرض نفسها تمامًا مثل الموضة في الطعام: لا تُدحض فكرة أكثر ممّا تُدحض صلصة.

*

لكلّ مظهر من مظاهر الفكر «لحظته» ورعونته. هكذا الأمر في أيّامنا بالنسبة إلى فكرة العدم. كم تبدو بالية اليوم عبارات مثل المادّة والطاقة والعقل. لكنْ من حسن الحظّ أنّ القاموس من الثراء بحيث يستطيع كلّ جيل أن يغترف منه ليطلع بمفردة لا تقلّ أهميّة عن الأخريات الهالكات بلا جدوى.

*

نحن جميعًا مزّاحون نعيش بعد المشاكل التي يُثيرها مزاحُنا.

*

أيّام كان الشيطان مزدهرًا كان الرعب والفزع والاضطرابات أمراضًا محاطة بحماية خارقة: كنّا نعرف الواقف وراءها والساهر على ازدهارها ـ الآن ها هي متروكةً لنفسها، تتحوّل إلى درامات شخصيّة أو تنحطّ إلى مستوى الذهان والباثولوجيا المباحة للجميع.

*

باضطرارنا إلى الابتسام لأفكار أولئك الذين ندعوهم إلى التدخّل، ينحطّ البؤس بشكوكيّتنا إلى رتبة مصدر الرزق.

*

تعرّضت النبتة إلى إصابة خفيفة، أمّا الحيوان فها هو يبذل قصاراه كي يختلّ نهائيًا، فيما يتفاقم لدى الإنسان تشوّهٌ يطال كلّ ما يتنفّس.

الحياة! تركيب من الكيمياء والذهول. هل سنلجأ إلى الاحتماء بتوازنِ ما هو جماد؟ قافزين القهقرى فوق الزمن الذي يفصلنا عنه؟ محاكين الحجر «الطبيعيّ»؟

*

إلى أبعد ما تصل بي الذاكرة، لا أرى نفسي إلاّ وأنا أقتل في داخلي كلّ اعتداد بأنّي إنسان. أتسكّع على أطراف النوع البشريّ مثل وحشٍ نفور، ولا أملك حتّى القدرة على ادّعاء الانتماء إلى قطيع آخر من القردة.

*

الملل يسوّي بين الألغاز: إنّه تهويم وضْعِي[٣].

*

ثمّة قلقٌ فطريّ يقوم لدينا مقام العلم والحدس في الوقت نفسه.

*

لَكَمْ يمتدّ الموت بعيدًا بحكم ما يكتسحه من مساحة، حتّى أنّي لم أعد أعرف أين أموت.

*

واجب الوعي: الوصول إلى يأس لائق. إلى شراسة أولمبيّة.

*

السعادة نادرة إلى هذا الحدّ لأنّنا لا نصل إليها إلاّ بعد الشيخوخة، في ذروة الهرم. ـ إنّها نعمة حكرٌ على قلّة قليلة من الفانين.

*

في تردّدنا علامة على نزاهتنا، أمّا يقيننا فلا يدلّ إلاّ على دجلنا.

يُعْرَفُ المفكّر الغشّاش من حصيلة الأفكار «الدقيقة» التي يدافع عنها.

*

غصتُ في المُطلق مغرورًا غبيًا، وخرجت منه وأنا مثل ساكن الكهوف.

*

كلبيّةٌ[1] العزلة الأقصى هي محنةٌ تخفّف من بلوائها الوقاحة.

*

يطرح الموت مسألة تحلّ محلّ المسائل الأخرى كلّها. هل هناك ما هو أفدح من هذا بالنسبة إلى الفلسفة، وبالنسبة إلى الإيمان الساذج بسلّمٍ تفاضليّ لأصناف الحيرة؟

*

تلعب الفلسفة دور الترياق بالنسبة إلى الحزن. مع ذلك مازال

الكثيرون يؤمنون بـ«عمق» الفلسفة.

*

في هذا الكون المؤقّت، ليس لمسلّماتنا سوى قيمة الأحداث اليوميّة.

*

كانت الحيرة بضاعة رائجةً زمن الكهوف. ولنا أن نتصوّر ابتسامة رجل النياندرتال، لو توقّع أنّ الفلاسفة سيأتون ذات يوم فيدّعون أبوّتها.

*

ذَنْبُ الفلسفة أنّها «محتملةٌ» أكثر ممّا يجب.

*

المفروض أنّ يكون اللامبالون، فاقدو الإرادة، الذين يتركون الأفكار على حالها، هم وحدهم المؤهّلين إلى الوصول إليها. أمّا حين يستولي عليها ذوو الاهتمام، فإنّ الفوضى اليوميّة الهادئة لا تلبث أن تنتظم في شكل تراجيديا.

*

الأمر الإيجابي في الانكباب على مسألتي الحياة والموت، هو إمكانيّة أن نقول فيهما أيّ شيء يتبادر إلى الذهن.

*

يتمنّى الشكّاك لو أنّه يتعذّب مثل سائر البشر من أجل الأوهام

التي تمنح القدرة على الحياة. لكنّه لا يفلح في ذلك: إنّه شهيد التفكير السليم.

*

اعتراض على العلم: هذا العالَم «لا يستحقّ» أن نعرفه.

*

كيف يمكن للمرء أن يكون فيلسوفًا؟ كيف يجرؤ على التصدّي للزمن والجمال والله وغير ذلك؟ إنّه فكرٌ يتورّم ويحجل دون حياء. ميتافيزيقا... شعر... ـ وقاحاتُ قملة.

*

رواقيّةٌ للزينة: أن تكون مغرمًا بالـ «nil admirari»(*)، مهووسًا بطمأنينة النفس.

*

إذا كنتُ أستطيع أن أقاوم نوبة انهيار عصبيّ، فباسم أيّ حيويّة أجدُ في مقاومة هَوَسٍ أملكُهُ ويسبقني؟ إنّي لا أختار الطريق التي تروق لي إلاّ حين أكون معافى، أمّا إذا «أُصبِتُ» فليس أنا من يقرّر بل «إصابتي». لا خيار بالنسبة إلى المهووسين: هَوَسُهم هو الذي اختار عنهم، بل اختار قبلهم. نحن نختار أنفسنا حين تتوفّر لدينا الإفتراضات المتشابهة، لكنّ وضوح العلّة يسبق تنوّع الطرق المفتوحة أمام الخيار. أن نسأل إن كنّا أحرارًا أم لا ـ هو تفاهة أمام عقل تجرجره

حُرَيْراتُ هذياناته. إنّ ادّعاء الحريّة بالنسبة إلى عقل كهذا يساوي التظاهر بعافية مخزية.
ما الحريّة إلاّ سفسطةُ أصحّاء.

*

لمّا كان غير راضٍ عن عذاباته الواقعيّة فإنّ القَلِقَ يفرض على نفسه عذابات مُتخيَّلة. هو كائنٌ يعتبر اللاواقع موجودا، بل يجب أن يوجد، وإلاّ فمن أين يحصل على وجبة العذاب الذي تتطلّبه طبيعته؟

*

ولماذا لا أقارن نفسي بأكبر القدّيسين؟ هل صرفتُ جنونًا في إنقاذ تناقضاتي، أقلَّ ممّا صرفوه في تجاوز تناقضاتهم؟

*

لاشكّ أنّ الفكرة كانت مُسَوَّسَة أيّام بحثها عن ملجأ، لذلك لم تجد من يستضيفها غير الدماغ.

*

التحليل النفسيّ تقنية نمارسها على حسابنا. إنّه يحطّ من مخاطراتنا ومحاذيرنا وهُوِيّنَا، ويجرّدنا من دنسنا، ومن كلّ ما كان يجعلنا مثار فضول بالنسبة إلينا.

*

أن يكون للمسائل حلول أم لا فهذا لا يُزعج إلاّ القلّة. أمّا أن لا

يكون للأحاسيس منفذ وأن لا تفضي إلى شيء وأن تضيع في نفسها، فهذه هي الماساة التي تسكن لاَوَعْيَ الجميع، هذا هو «الإشكال العاطفيّ غير القابل للحلّ» الذي يعاني منه الجميع دون انتباه.

*

إنّه لَمَسَاسٌ بالفكرة أن نعمّقها: ذلك يعني أن ننتزع منها سحرها وربّما حياتها.

*

قد يكون في وسعي - بحماس أكبر في العدميّة وبِنَفْيِ كلّ شيء - أن أهزّ شكوكي وأنتصر عليها. لكنّي لا أملك غير الميل إلى النفي، فأنا لا أملك سحره.

*

أن أكون جرّبتُ فتنة الأقاصي ثمّ توقّفت في مكانٍ مَا بين الأهواء والديناميت...

*

يجب أن يتمثّل الموضوع المفضّل لدى البيولوجيا في «ما لا يُحتمل» وليس في «التطوّر».

*

نظرتي إلى نشأة الكون تضيف إلى العماء الأوّلي[(٦)] مجموعة لا نهائيّة من نقاط الوقف.

*

مع كلّ فكرة تولد فينا ثمّة شيء يتعفّن.

*

كلّ مسألة تدنّس لغزًا، والمسألة بدورها يدنّسها حلّها.

*

الميلُ إلى ما يثير العواطف ينمّ عن عُمْقٍ سيّئ الذوق، كذلك التنعّم بالتمرّد الذي راق للوثر وروسّو وبيتهوفن[٧] ونيتشه. إنّها النبرات العالية: إنّه نزوع المتفرّدين إلى العوامّ.

*

هذه الحاجة إلى الندم التي تسبق الشرّ. ماذا أقول! بل التي تَخْلُقُهُ...

*

هل يُمْكِنُنِي تحمُّلُ العيش يومًا واحدًا لولا كَرَمُ جنوني، هذا الذي يعدني بأنّ القيامة غدًا؟

*

نتعذّب فيبدأ العالم الخارجيّ بالوجود. نتعذّب أكثر ممّا ينبغي فيتلاشى... الألمُ لا يبعث العالَمَ إلاّ ليكشف عن لا واقعيّته.

*

الفكر الذي يتحرّر من كلّ تحيّز، هو فكرٌ يتفكّك محاكيًا تناثُرَ الأشياء التي يريد الإمساك بها ومحاكيًا عدمَ انسجامها.

بأفكار «سائلة»نحن «نتمدّد» على الواقع ونعانقه دون أن نفسّره. هكذا ندفع غاليًا ثمن «النظام» الذي لم نرغب فيه.

*

الواقع يصيبني بالربو.

*

ننفر من الذهاب إلى النهاية بفكرة مُحْبِطة، مهما كانت غير قابلة للدحض. نتصدّى لها لحظةَ تصيب أحشاءنا، لحظةَ تتحوّل إلى إحساس بالضيق، لحظةَ تصبح حقيقة الجسد ودماره - لم أقرأ تعليمًا لبوذا أو صفحة لشوبنهاور[٨] دون أن «تداهمني الأفكار الورديّة»[٩].

*

نعثر على الحذلقة الماكرة:

- لدى الفقهاء. إذ لمّا كانوا عاجزين عن إثبات ما يدّعونه فقد تحتّم عليهم أن يمارسوا من حِيَلِ البيان والتفصيل ما يُتَوِّهُ العقل، وتلك بغيتهم: كم من البراعة يتطلّب تصنيف الملائكة إلى عشرات الأنواع! فضلاً عن الخوض في أمر الله الذي استهلك «مُطْلَقُهُ» ما لا يُحصى من الأدمغة وبلغ بها الدرك الأسفل!

- لدى العاطلين عن العمل - لدى سادة المجتمع والأرهاط اللامبالية وكلّ الذين يقتاتون من الكلمات - ذلك أنّ المُحادثة أُمُّ

الفطنة.لم يبال بها الألمان فغرقوا في المتافيزيقا. أمّا الشعوب الثرثارة كالإغريق القدامى والفرنسيّين المتمرّسين بنِعَمِ العقل فقد برعوا في «تقنية اللاشيء».

– لدى المُضطهَدين. إذ لمّا كانوا مجبرين على الكذب والمكر والاحتيال فقد عاشوا حياة مزدوجة ومغشوشة: «اللاصدقُ» - من باب الحاجة - يقدح الذكاء. الإنكليز مثلاً واثقون من أنفسهم لذلك يبدون مملّين، إنّهم يدفعون هكذا ثمن قرون من الحريّة أمكن لهم خلالها أن يعيشوا دون حاجة إلى الحيلة أو الابتسامة الماكرة أو الطرق الملتوية. من ثمّ نفهم لماذا يمتلك اليهود، في المقابل تمامًا، ميزة كونهم الشعب الأكثر فطنة.

– لدى النساء. إذ لمّا كنّ مجبرات على الحشمة فقد توجّب عليهنّ أن يخفين رغباتهنّ وأن يكذبن: «إنّ الكذب شكل من أشكال الموهبة»، في حين أنّ احترام «الحقيقة» يمضي جنبًا إلى جنب مع الفظاظة والثقل.

– لدى المجانين - الذين لم يقع حبسهم في المستشفيات - لدى أولئك الذين يحلم بهم قانون عقوبات مثاليّ.

*

في بداية الشباب نحاول ممارسة الفلسفة لا بحثًا عن رؤية بل بحثا عن مُحَفِّز. نجدُ في مطاردة الأفكار ونحدس بالهذيان الذي أنتجها. نحلم بمحاكاته والإفراط فيه. المراهَقَةُ يطيب لها

اللعبُ بالذُرى كالمشعبذين. إنّها لا تحبّ في المفكّر إلاّ البهلوان. في نيتشة كنّا نحبّ زرادشت[١٠]، وضعيّاته المتكلّفة، تهريجيّتَهُ الصوفيّة، كلّ ما يمثّلُ سوقًا حقيقيّة للذرى.

عبادتُه للقوّة لا تعود إلى تعاظم تطوّري بقدر ما تعود إلى توتّر داخليّ ألقَى به إلى الخارج، أو إلى نشوةٍ تؤوّل المستقبل وترضى به. ومن الطبيعيّ أن تنشأ عن ذلك صورة مزيّفة عن الحياة والتاريخ. ولكن كان لابدّ من المرور من هناك، كان لابدّ من المرور بالعربدة الفلسفيّة، بعبادة الحيويّة. إنّ الذين امتنعوا عن ذلك لن يعرفوا أبدًا السقوط بعد الصعود، نقيضَ تلك العبادة وتكشيراتها. سيظلّون مغلقين أمام منابع الخيبة.

لقد اعتقدنا مع نيتشة بديمومة الشطح. وبفضل نضج كلبيّتنا[١١] ذهبنا إلى أبعد ممّا ذهب إليه. فكرةُ السوبرمان[١٢] لم تعد في نظرنا غير هذيان، هي التي كانت تبدو لنا في دقّة معطيات التجارب العلميّة. هكذا امّحى ساحرُ شبابنا. ولكن - إذا كان نيتشة عديدًا - فمَنْ بقي منه إلى الآن؟ إنّه الخبير في السقوط، المحلّل النفسانيّ، المحلّل النفسانيّ العنيف، وليس الملاحظ فحسب مثلما هو شأن الوعّاظ. إنّه ذاك الذي يفحص كعدوّ ويخلق أعداء. لكنّه يستخرج أعداءه من ذاته مثل الرذائل التي يندّد بها. هل يتحامل على الضعفاء؟ كلاّ، بل يقوم بعمليّة سبر لأغواره هو. وحين يهجم على الانحطاط فهو يصف

وضعه هو. أحقاده كلُّها تتّجه بشكل غير مباشر إلى ذاته. نقائصُه يعلنها عاليًا ويتّخذ منها مثلاً أعلى. إذا كره نفسه فإنّ المسيحيّة والاشتراكيّة سيعانيان من تلك الكراهية. تحليله للعدميّة لا يُدحض، ذلك أنّه هو نفسه عدميّ وهو يعترف بذلك. كان هجّاءً عاشقا لخصومه، وما كان في وسعه أن يتحمَّلَ نفسه لو لم يحارب مع نفسه ضدّ نفسه ولو لم يضع أسباب شقائه خارجًا، في الآخرين: لقد «انتقم من نفسه في الآخرين». لقد مارس البسيكولوجيا كبطل، وهو من ثمّ يقترح على المغرمين بالمستغلق تنويعة هائلة من المآزق.

نحن نقيس خصوبته بالإمكانيّات التي تركها لنا كي نُنْكِرَهُ باستمرار دون أن نَنْفَدَ منه. إنّه عقلٌ رحّالة عرف كيف ينوّع لاتوازناته. لقد وقف كلّ مرّة مع الشيء وضدّه. تلك طريقة أولئك الذين يلجؤون إلى المضاربات أمام عجزهم عن كتابة تراجيديّات، وأمام قصورهم عن التفتّت على مصائر متعدّدة. المهمّ أنّ نيتشة استطاع بالكشف عن هيستيرياته أن يخلّصنا من الخجل بهيستيرياتنا. كان شقاؤه مفيداً بالنسبة إلينا. لقد دشّن زمن «العُقَد».

*

الفيلسوف «الكريم» هو ذاك الذي ينسى – على حسابه – أنّ ما ينجو من نسقٍ فكريٍّ مَا، هو الأفكار السامّة فحسب.

*

في السنّ التي يدفعنا معها نقصُ التجربة إلى التعلّق بالفلسفة، قرّرتُ أن تكون لي أطروحتي مثل الجميع. أيّ المواضيع أختار؟ كنت أرغب في موضوع متداول وغريب في الوقت نفسه. وما أن تصوّرت أنّي عثرت عليه حتّى سارعت أفضي به إلى مُعلّمي.

ـ ما رأيك في «النظريّة العامّة للدموع»؟ أَلْمَسُ في نفسي القدرة التامّة على إنجازها.

ـ هذا جائزٌ قال، لكنّك ستجد صعوبة كبيرة في العثور على بيبليوغرافيا.

ـ إذا كان هذا كلّ ما في الأمر فسيكون لي من التاريخ بأسره خير دعم. هكذا أجبته بنبرة رقاعة وانتصار.

إلاّ أنّي ما أن رأيته ملولاً يلقي إليّ بنظرة اشمئزاز حتّى قرّرت فورًا أن أقتل في داخلي «التلميذ».

*

في أزمنة أخرى لم يكن الفيلسوف الذي يفكّر دون أن يكتب معرّضًا إلى الاحتقار. منذ أصبحنا ننحني أمام الجدوى والفعاليّة أصبح الأثرُ بمثابة المُطلق بالنسبة إلى السوقيّ، وأصبح من الدارج اعتبار الذين لا ينتجون أثرًا «فاشلين». هؤلاء «الفاشلون» الذين قد يكونون حكماء زمن آخر، كافُونَ

لمسح ذنوب زماننا هذا، فقط لكونهم لم يتركوا فيه أثرًا.

*

تأتي لحظة على الشكّاك، بعد أن يكون قد وضع كلّ شيء موضع السؤال، فلا يجد ما يشكّ فيه. لحظتها يوقف حكمه فعلاً. ماذا تبقّى له؟ اللهو أو الخدر ـ الطيش أو الحيوانيّة.

*

أكثر من مرّة، حدث لي أن لمحتُ خريفَ الدماغ، نهايةَ الوعي، المشهدَ الأخير للعقل، ثمّ إذا نورٌ يجمّد الدم في عروقي.

*

نحو حكمة نباتيّة: أجْحَدُ كلّ مخاوفي مقابل ابتسامة شجرة.

هوامش "لصّ الأغوار":

١- ربّما كان من المفيد، للمزيد من التعرّف على "موقع" سيوران الفكريّ، التذكير بصلته الوثيقة بسقراط (٤٧٠-٣٩٩قم)، وبعدد من "فلاسفة ما قبل السقراطيّة"، من حيث الاعتماد على "السؤال" أساسًا، وتفضيل الشذرة على النصّ المُهيكَل، إلخ...

٢- راجع الهامش ٢٠ (فصل: ضمور الكلمة) حيث أملى علينا السياق اختيار كلمة فوضى لترجمة Chaos.

٣- وضعيّ Positiviste، نسبة إلى الوضعيّة Positivisme، فلسفة "أوغست كونت" التي لا تؤمن بالبحث عن العلل والغايات.

٤- الكلبيّة Cynisme، راجع الهامش ٢٦ (فصل ضمور الكلمة).

٥- جاء في بيتين شهيرين لهوراس ٥٦-٨ قم (Horace):

وترجمتُها: ألاّ يُدهِشَكَ شيء، Nil admirari, propè res est una, numici
ها هي يا نوميسيوس، الوسيلة الوحيدة كي تَسْعَدَ وتدوم سعادتك ...

٦– هنا خيّرنا استعمال هذه العبارة لترجمة Chaos.

٧– سبق التعرُّضُ إلى لوثر ونيتشه في هوامش الفصل الأوّل، ونلفت نظر القارئ هنا إلى أنّ موقف سيوران من الكاتب والفيلسوف الفرنسيّ جان جاك روسّو (Jean Jacques Rousseau) ١٧١٢–١٧٧٨ وموقفه من المؤلّف الموسيقيّ الألمانيّ الكبير لودفيغ فون بيتهوفن L.V.Beethoven (١٧٧٠–١٨٢٧م) لا يختلفان كثيرًا عن أراء بودلير في روسّو وفي الموسيقى بشكل عامّ، وفي مسألة "النبرة العالية"، كما عبّر عنها في "اليوميّات".

٨– بوذا Bouddha أو سيدهارتا (الملْهَم، أو المُشرِق، أو الراتِي)، هو مؤسّس البوذيّة (٥٢٥ قم)، وتقوم البوذيّة أساسًا على اعتبار الألم أو العذاب متماهيًا مع الوجود، ومن ثمّ لا يمكن الوصول إلى النيرفانا Nirvana، أي إلى الخروج من حلقة الولادة والموت، إلاّ بالتحرّر من سبب الألم، أي بالتحرّر من الرغبة. وليست هذه الفكرة البوذيّة بعيدة عن التأثير في فكر الفيلسوف الألمانيّ أرثر شوبنهاور ١٧٨٨–١٨٦٠ (Arthur Schopenhauer)، فهو يلاحظ أنّ "الرغبة في الحياة"، هي السمة المشتركة بين كلّ الأحياء، وأنّها مصدر آلامهم، إلاّ أنّه يعوّض النيرفانا بالفنّ، ويرى في الأثر الفنّي "الموضع" الذي ينقطع عنده الألم. وقد أثّر شوبنهاور في نيتشة وفي فلاسفة القرن العشرين، ولم تغب بصماته عن سيوران نفسه على الرغم من "ظاهر" هذه الشذرة.

٩– هكذا رأينا ترجمة عبارة Broyer du rose، وهي من "اختراع" سيوران، وقد صاغها على غرار العبارة الشائعة Broyer du noir التي تعني الاستسلام إلى الأفكار السوداء. وليس أكثر سوادًا، لدى سيوران، من التفاؤل والأحلام الورديّة.

١٠– قد يكون من المفيد، وربطًا مع الهامش السابق المتعلّق ببوذا

وشوبنهاور، التذكير بأنّ زرادشت Zarathushtra، قبل أن يكون بطل نيتشة الشهير، في ذلك النصّ الذي دافع من خلاله عن فكرة الإنسان الأعلى (السوبرمان)، هو إحدى الشخصيّات التي وضعت "تاريخيّتُها" موضع نقاش لا ينتهي. ويدافع الكثيرون عن كون "مؤسّس الزارادشتيّة" ظهر قبل المسيح بكثير (٦٦٠-٥٨٣ قم) هذا إن لم يعد إلى تاريخ أبعد، وأنّه كان يبشّر بحياة بشريّة قائمة على أساس اليقين التامّ من الانتصار والعدالة.

١١- نسبة إلى الكلبيّة Cynisme (راجع هوامشنا السابقة).

١٢- يبدو أن هذه الكلمة استقرّت في المتداول بما يكفي لتغني عن غيرها من العبارات، كالإنسان الأعلى، مثلاً.

زمن وأنيميا

كم هي قريبة منّي تلك المجنونة العجوز التي كانت تجري وراء الزمن، تلك التي كانت تريد الإمساك بقطعة من الزمن.

*

ثمّة علاقة بين فقرنا الدمويّ وغربتنا في الديمومة: إنّ عدد اللحظات الخاوية موافقٌ لعدد كرياتنا البيضاء. أليس ذلك مرتبطًا بكون حالات وعينا ناشئة عن تفسّخ ألوان رغباتنا؟

*

يفاجئني ذلك الرعب الممتع للدوار عند الزوال تمامًا، فلمن أنسبه؟ للدم؟ لِلاَزَوَرْدِ السماء؟ أم للأنيميا[1] التي هي في منتصف الطريق بين الإثنين؟

*

امتقاع لوننا يرينا إلى أيّ حدّ يمكن للجسد أن يفهم الروح.

*

مع شرايينك المحتقنة بالليل، أنت لا تقلّ غربة بين البشر عن شاهدة قبر وسط سيرك.

*

في ذروة انعدام الفضول، نحلم بنوبة صَرَعٍ جيّدة كمن يحلم بأرض موعودة.

*

يُدمِّرُنا غرامُنا كلّما كان موضوعه أكثر ضبابيّة. غرامي كان بالملل: لقد وقعتُ ضحيّة عدمِ دِقّته.

*

أنا ممنوع من الزمن. ولمّا كنت عاجزًا عن متابعة إيقاعه فإنّي أتعلّق بتلابيبه أو أتأمّله لكنّي لست فيه البتّة. كما أنّه ليس فِيَّ. وعبثًا أطمع في قليل من زمن الجميع.

*

اللوكيميا[٢] هي الحديقة التي فيها يزهر الله.

*

إذا أمكن للإيمان أو السياسة أو الحيوانيّة النيْل من اليأس، فلا شيء ينال من الكآبة[٣]: إنّها لا يمكن أن تتوقّف إلاّ مع آخر قطرة من دمنا.

*

الملل قلق يرقانيّ، أمّا الكآبة فهي حِقْدٌ حالم.

*

أحزاننا تمْتَدُّ باللغز الذي تشي به ابتسامة المومياوات.

*

وحده القَلَقُ بِاعتبارِهِ يوطوبيا سوداء يمنحنا تفاصيل عن المستقبل.

*

هل نتقيّأ؟ هل نصلّي؟ إنّ الملل يرتفع بنا إلى سماءٍ صالحةٍ للصلْبِ تترك في حلوقنا طعمًا راسبًا من السُكَّرين.

*

«أنا شبيه بالدمية المتحرّكة المكسورة التي سقطت عيناها إلى الداخل».

هذه العبارة التي نطق بها مريض عقلي، أعْمَقُ من كلّ الأعمال التي وُضعت في الاستقراء الباطنيّ.

*

حين يحدث لكلّ شيء من حولنا أن يفقد الطعم، كم يُصبح «مُحَمَّضًا» ذاك الفضول لمعرفة «كيف» سنفقد العقل.

*

آه لو كان في إمكاننا أن نغادر على كيفنا العدمَ المصاحب للامبالاة في اتّجاه الحيويّة المصاحبة لتقريع الضمير.

*

بالمقارنة مع الملل الذي ينتظرني، يبدو الملل الذي يسكنني، فوق طاقة الاحتمال بدرجة ممتعة، الشيء الذي يجعلني أرتجف خوفًا من فكرة أن أستنفد رعبي منه.

*

في عالم لا كآبة فيه لن يكون أمام العنادل غير التجشّؤ.

*

هل ثمّة من يستعمل كلمة حياة في كلّ موضع؟ إذنْ فاعلموا أنّه مريض.

*

اهتمامُنا بالزمن ناشئ عن زَهْوِنا بمَا لا رجاء فيه.

*

لإتقانِ الحزن، تلك الحرفة اليدويّة المتعلّقة بما هو ضبابيّ، بعضهم يحتاج إلى ثانيةٍ وبعضهم يحتاج إلى حياة كاملة.

*

أكثر من مرّة انعزلتُ في تلك الغرفة المخصّصة للمهملات التي هي السماء، أكثر من مرّة رضخت لتلك الحاجة إلى الاختناق في الله.

*

لا أكون نفسي إلاّ إذا كنتُ فوقي أو تحتي، في ذروة الغضب أو في ذروة الإحباط. حين أكون في المستوى العاديّ لنفسي أجهل أنّي موجود.

*

ليس من السهل الحصولُ على عُصاب. من يُفلح في ذلك يملك ثروة يساهم في إنمائها كلّ شيء: النجاح كما الفشل.

*

نحن لا نستطيع التحرّك إلاّ وفقًا لمدّة محدودة في الزمن: يوم،

أسبوع، شهر، سنة، عشر سنوات أو حياة كاملة. ولو شاء حظّنا السيّئ أن نربط بين أفعالنا والزمن، فإنّ الزمن والأفعال سيتبخّران: تلك هي المغامرة في اللاشيء، ذاك هو سِفْرُ تكوين الـ «لا».

*

لا بدّ لكلّ رغبة من أن تلتقي آجلاً أو عاجلاً بذبولها: بحقيقتها.

*

الوعي بالزمن مؤامرة على الزمن...

*

بفضل الكآبة - هواية تسلّق الجبال هذه، اللائقة بالكسالى نتسلّق انطلاقًا من فراشنا القِممَ كلّها ونحلّق بأحلامنا فوق كلّ الهُوِيّ.

*

الشعور بالملل لَوْكٌ للوقت.

*

الأريكة، هذا المسؤول الكبير، مُتَعَهِّدُ[4] «رُوحِنَا»...

*

أتّخذ قرارًا وأنا واقف. أضطجعُ فأُلغيه.

*

كان من السهل أن نتأقلم مع الأحزان لولا أنّها تُجْهِزُ على

العقل والكبد.

*

بحثتُ في نفسي عن المثال الخاصّ بي. أمّا بخصوص الاقتداء به فقد أسلمتُ العنان إلى جدليّة التواني. لكم هو أكثر متعة أن لا ننجح في أنفسنا.

*

من المبالغات الميتافيزيقيّة أن نخصّ فكرة الموت بكلّ الساعات التي كانت تتطلّبها مهنةٌ مَا. وهذا من خاصيّات الرهبان والعاطلين عن العمل والصعاليك.

لو كان بوذا نفسه صاحب مهنة لظلّ مجرّد ساخط.

*

أَجْبِرُوا البشر على الاضطجاع طيلة أيّام وأيّام. ستُفلح الأرائك حيث فشلت الحروب والشعارات. ذلك أنّ عمليّات الملل تتجاوز من حيث الفعاليّة العمليّات العسكريّة والإيديولوجيّة.

*

تقزُّزُنَا من هذا الشيء أو ذاك، ليس سوى تحويلٍ لوجهة تقزّزنا من أنفسنا.

*

حين أفاجئ في نفسي حركةَ ثورةٍ مَا، أبتلع حبّة منوّم أو

أستشير طبيبًا نفسانيًا. الوسائل كلّها جائزة بالنسبة إلى من يلاحق اللامبالاة دون أن يكون مهيّئًا لها.

*

الفراغ هو اليقين الذي يكتشفه في آخر سيرتهم المهنيّة، وكمكافأة على خيباتهم، الناسُ الطيّبون والفلاسفة المحترفون. بينما هو من باكورات الكسالى، أولئك الميتافيزيقيّون منذ الولادة.

*

كلّما أجْهَزْنَا على إحساسنا بالخزي تعرّينا من أقنعتنا. إلى أن يأتي يوم تتوقّف لعبتنا: لا خزي بعد، لا قناع، ولا جمهور. ـ لقد أفرطنا في إحسان الظنّ بوفرة أسرارنا وبحيويّة شقائنا.

*

لي يوميًا خلوات مع هيكلي العظميّ، وهذا ما لن يغفره لي لحمي أبدًا.

*

لا يُهْلِكُ الفرحَ إلاّ قلّةُ صرامته. لاحظوا في المقابل منطقيّة الضغينة.

*

إذا حزنتَ مرّة دونما سبب، فثق أنّك كنت حزينًا طيلة حياتك دون أن تعرف.

*

أتسكّع عبر الأيّام مثلما تتسكّع مومس في عالم بلا أرصفة.

*

نحن لا ننتمي إلى الحياة فعلاً إلاّ متى تفوّهْنَا، متحمّسين، بإحدى السذاجات.

*

بين الملل والنشوة تدور أحداثُ تجربتنا مع الزمن كُلِّها.

*

هل وصلتْ حياتُك إلى نتيجة؟ إذَنْ لن تعرف أبدًا الكبرياء.

*

نحن نحتمي بوجوهنا لكنّ المجنون يفضحه وجهه. إنّه يمنح نفسه. يسبق الآخرين إلى اتّهامه. لقد أضاع قناعه لذلك فهو ينشر حيرته. يفرضها على أوّل عابر. يفضح أسراره. هذا القدر كلُّه من عدم التكتّم يثير الحفيظة. من الطبيعيّ إذَنْ أن يُوثَقَ ويُعزل.

*

المياه كلّها بلون الغرق.

*

إمّا بسبب شغفي بتقريع الضمير، وإمّا بسبب فقداني الإحساس، لم أقم بأيّ شيء لإنقاذ القليل من المطلق الذي

يحتويه هذا العالم.

*

الصيرورةُ احتضار بلا خاتمة.

*

بعكس الملذّات، لا تقود الآلام إلى الإشباع. ليس هناك مجذوم مُتخم.

*

الحزنُ شهيّةٌ لا تشبعها أيّ مصيبة.

*

لا شيء يثير زهونا مثل عقدة الموت: «العقدة» وليس الموت.

*

اللحظاتُ التي يبدو لي فيها أنْ لا جدوى من نهوضي، هي التي تشحذ فضولي إزاء أولئك الذين لا أمل في شفائهم. لاشكّ أنّهم وقد سُمِّروا إلى أسرّتهم وإلى المطلق، يعرفون الكثير عن كلّ شيء. إلاّ أنّي لا أقترب منهم إلاّ بالحِيَلِ والمهارات التي يعلِّمُها الخدر، بالاجترار الذي يصاحب نوم الضحى.

*

يظلّ كلّ شيء ممكنًا طالما ظلّ الملل محدودًا بأمور القلب، أمّا إذا تفشّى في حلقة الفكر فقد هلكنا.

*

لا نتأمّل البتّة ونحن وقوفٌ فما بالك إذا كنّا ماشين. لقد وُلِدَت الحركة من تكالبنا على الوضعيّة العموديّة. وعلينا إذا أردنا الاحتجاج على مضارّ الحركة أن نحاكي وضعيّة الجثث.

*

اليأسُ وقاحة الشقاء. إنّه شكل من الاستفزاز. فلسفةُ عصور لا تتقن التكتّم.

*

نكفّ عن الخوف من الغد حين نتعلّم كيف نغترف من الفراغ ملء اليدين. الملل يصنع المعجزات: إنّه يحوّل الفراغ إلى مادّة. هو نفسه فراغ مغذٍّ.

*

كلّما تقدّمتُ في السنّ قلّت رغبتي في لعب دور هاملت على طريقتي. بل إنّي لم أعد أعرف بأيّ ألمٍ عليّ أن أحِسّ في مواجهة الموت؟

هوامش "زمن وأنيميا":

١- فضّلنا إثبات كلمة أنيميا Anémie (مرض فقر الدم) لذيوعها، وكلّما سمح السياق بذلك.

٢- اللوكيميا La leucémie، مرض ابيضاض الدم بتكاثر الكريات البيض فيه ممّا يؤدّي إلى السرطان.

٣- ربّما كانت كلمة السويداء أكثر دقّة، إلاّ أنّنا فضّلنا كلمة "الكآبة" لترجمة Mélancolie.

٤- يستعمل سيوران هنا كلمة Promoteur في سياق ساخر وتهكّميّ، ومن دلالات هذه الكلمة: الداعية، والمروّج، والمحفّز، والمقاول أو متعهّد البناء (غير بعيد عن متعهّد الحفلات) إلخ...

غرب

كبرياء حديثة: خسرتُ صداقة رجل أحترمه لأنّي أصررتُ على القول مرارًا وتكرارًا بأنّي منحطٌّ أكثر منه.

*

عبثًا يبحث الغرب عن طريقة للاحتضار لائقةٍ بماضيه.

*

دون كيخوته[1] يمثّل شباب حضارة: يخترع له أحداثًا. أمّا نحن فلم نعد نعرف كيف ننجو من الأحداث التي تضغط علينا.

*

انكبّ الشرق على الزهور والزهد وها نحن نعارضه بالآلات والجهد، وبتلك الكآبة المهرولة - آخر انتفاضات الغرب.

*

كم هو محزن أن نرى أممًا كبيرة تتسوّل قدْرًا إضافيًا من المستقبل.

*

عصرُنا سيكون موسومًا برومانسيّة معدومي الجنسيّة. بل إنّنا نرى منذ الآن عالمًا يتشكّل، حيث ليس لأحد الحقّ في ادّعاء المُواطَنة.

في كلّ مُواطنٍ من مواطني اليوم يكمن غريب قادم.

*

أَلْفُ سنة من الحرب دعَمت الغرب. قرنٌ من البسيكولوجيا جعله في وضع ميئوس منه.

*

بواسطة الفِرَقِ الدينيّة تساهمُ العامّةُ في المُطلق ويعبّر الشعب عن حيويّته. الفِرَقُ هي التي مهّدت في روسيا للثورة وللطوفان السلافيّ.

وقد أخذ التسوُّسُ ينخر الكاثوليكيّة منذ بدأت تفصح عن صرامة متقنة. ولكن يبدو أنّ حياتها المهنيّة لم تنته على الرغم من ذلك، فمازال عليها أن تلبس حداد اللاتينيّة.

*

لَمّا كُنّا مرضى بالتاريخ، بخسوف التاريخ، فقد توجّب علينا أن نزايد على كلمة فَاليرِي[٢] وأن نُضاعف مداها: نحن نعرف الآن أنّ الحضارة قابلة للموت وأنّنا نهرول نحو الاختناق، نحو معجزات الأسوأ، نحو العهد الذهبيّ للرعب.

*

القرنُ السادس عشر أقربُ إلينا من أيّ قرن آخر بفعل كثافة صراعاته. لكنّي لا أرى أثرًا لِلُوثِرْ أو كَالْفِن[٣] في عصرنا هذا. بالمقارنة مع هذين العملاقين ومعاصريهما نبدو نحن جمعًا من أقوام البيغمي منذورين بحكم المعرفة إلى مصير بالغ الجسامة. قد يتفوّقون علينا من حيث الهيئة، ومع ذلك، ثمّة

نقطة تُسَجَّلُ لصالحنا: كان لهم في مِحَنِهِمْ أن يمارسوا جبن اللجوء إلى اعتبار أنفسهم من بين المُختارين. فكرةُ المصير المُسبق، وهي الفكرة المسيحيّة الوحيدة التي ظلّت تتمتّع ببعض الإغراء، كانت تحتفظ لديهم بوجهها المزدوج. أمّا بالنسبة إلينا فلم يعد ثمّة مختارون.

*

أنصِتوا إلى الألمان والإسبان يفصحون عن أنفسهم: سيصمّون آذانكم دائمًا بالنغمة نفسها: تراجيديّ. تراجيديّ. تلك طريقتهم ليفسروا لك مصائبهم أو ركودهم أو طريقتهم في الفلاح.

اِلْتَفِتُوا إلى سكّان البلقان، ستستمعون في كلّ مناسبة إلى عبارة: القدر، القدر، به تسعى الشعوب القريبة من أصولها أكثر ممّا يجب، إلى إخفاء أحزانها المُعَطَّبة. إنّه تكتّم سكّان الكهوف.

*

بمعاشرة الفرنسيّين نتعلّم كيف نكون تعساء بلُطف.

*

الشعوب التي لا تحفل بالتفاهات والطيش والأمور التقريبيّة، الشعوب التي تعيش مبالغاتها الكلاميّة، هي كارثة بالنسبة إلى نفسها وبالنسبة إلى الشعوب الأخرى. إنّهاتحطّ بثقلها

على لاشيء، وتتعامل بجدّ مع ما هو ثانويّ وبتراجيديّة مع ما لا أهميّة له. وأن تنشغل إضافةً إلى ذلك بحماسٍ فيّاض للوفاء وبقرف كريهٍ من الخيانة، فهذا يجعلنا نفقد منها كلّ رجاء، باستثناء الرجاء في انهيارها التامّ. مثل هذه الشعوب لا يوجّه مزاياه الوجهةَ الصحيحة ولا يعالجه من عمقه، إلاّ هدايَتُهُ إلى جنوبيّ فرنسا وتلقيحُهُ بفيروس الدعابة.

لو احتلّ نابليون ألمانيا بجيش من مرسيليا لَتَغَيَّر وجهُ العالم.

*

هل في وسعنا أن نسم الشعوب المتجهّمة بميسم جنوبيّ فرنسا؟ أن نُجَوْنِبَهَا؟[٤] هذا هو السؤال الذي يتعلّق به مصير أوروبا. لو أمكن للألمان أن يعودوا إلى العمل كالسابق لَهَلَكَ الغرب. كذلك الأمر إذا لم يعثر الروس من جديد على شغفهم القديم بالكسل. لا بدّ من أن ننمّي لدى أولئك وهؤلاء الميل إلى البطالة الهانئة واللامبالاة والقيلولة. أن نزيّن لهم مُتَع الخمول والتلوّن.

إلاّ إذا رضينا بالاستسلام إلى الحلول التي ستسلّطها بْروسيا أو سيبيريا على ولعنا بالفراغ.

*

ما من تطوّر أو اندفاع إلاّ وهو هدّام، خاصّة في لحظات ذروته. ها هي صيرورة هيراقليطس تتحدّى الأزمنة، بينما صيرورة

برغسون(*) تلتحق بتلك المحاولات الساذجةوالخردوات الفلسفيّة.

*

سعداء أولئك الرهبان الذين كانوا مع نهاية القرن الوسيط يركضون من مدينة إلى أخرى مبشّرين بنهاية العالم. هل تأخّرت نبوءاتهم عن موعد تحقّقها؟ لا يهمّ. كانوا قادرين على الانفجار، مفرغين مخاوفَهم في الجموع، مطلقين لها العنان كي تكون لها حياة مهنيّة. ـ علاجٌ وهميّ في عصر كعصرنا، حيث خسر الرعب فضائله بعد أن أصبح من بين العادات.

*

لتسيير الناس لابدّ من ممارسة رذائلهم والتفوّق فيها. أُنظروا إلى البابوات: لقد سادوا القرن طالما ظلّوا يفسقون ويزنون بالمحارم ويقتلون، وكانت للكنيسة اليد الطولى. ولكن ما أن احترموا التعاليم التي جاءت بها هذه الكنيسة حتّى أخذوا ينهارون: لقد كان التعفّف مثل الإعتدال نحساً عليهم. وإذ صاروا محترمين لم يعد يخافهم أحد. ذاك أفول مؤسّسةٍ غنيٍّ بالدروس.

*

لا حُضورَ للشرف كحُكْمٍ مسبق إلاّ مع الحضارات البدائيّة. إنّه يختفي مع مجيء الوعي، مع سيادة الجبناء، أولئك الذين

بعد أن «فهموا» كلّ شيء، لم يعد لهم ما يدافعون عنه.

*

حافظت إسبانيا طيلة ثلاثة قرون وبحرص شديد على سرّ اللافعاليّة. اليوم صار الغرب بأسره يملك هذا السرّ. لم يسرقه، بل اكتشفه بجهده الخاصّ، بالاستبطان.

*

حاول هتلر بواسطة الهمجيّة أن ينقذ حضارة بأسرها. كان مآل محاولته الفشل. ـ هذا لا يمنع أنّها كانت آخر «مبادرات» الغرب.

لا شكّ أنّ هذه القارّة كانت تستحقّ أفضل من ذلك. ولكن ذنب من، إذا هي لم تستطع إنتاج غولٍ من نوع أرقى؟

*

كان روسو نكبة على فرنسا مثلما كان هيغل[٦] بالنسبة إلى ألمانيا. ولمّا كانت أنكلترة لا تقلّ لامبالاةً بالهستيريا عنها بالأنظمة الفكريّة، فقد تصالحت مع الرداءة.

«فلسفتُها» رَسَّخَتْ قيمةَ الإثارة. سياستُها رسّختْ قيمة «الصفقة». المذهب التجريبيّ كان إجابتها على هَذَرِ القارّة. البرلمان كان تحدّيها في وجه اليوطوبيا، في وجه علم أمراض البطولة.

لايمكن أن يوجد تَوَازُنٌ سياسيّ بدون وجود أشخاص عديمي

الكفاءة من النوع الجيّد. من الذي يتسبّب في الكوارث؟ إنّهم المسكونون بداء الحركة، العنِّينون، المصابون بالأرق، الفنّانون الفاشلون الذين حملوا التيجان أو السيوف أو الأزياء العسكريّة، وأكثر منهم جميعا، المتفائلون، أولئك الذين «يقترفون الأمل» على حساب الآخرين.

*

ليس من اللائق الإفراطُ في سوء الحظّ. ثمّةَ أفراد، شأنهم في ذلك شأن بعض الشعوب، يطيب لهم الإغراق في النحس إلى حدّ إلحاق العار بالتراجيديا.

*

على العقول الواعية إذا أرادت إضفاء طابعٍ رسميٍّ على قنوطها وفرضَه على الآخرين، أن تتشكّل في «جبهة للخيبة». لعلّها تفلح هكذا في التخفيف من ضغط التاريخ، وفي جعل المستقبل اختياريًا.

*

مرّة بعد أخرى عشقتُ ثمّ كرهت عددًا لا يُحصى من الشعوب - لم يخطر على بالي مطلقًا أن أُنكر الإسبانيّ الذي تمنّيتُ أن أكون.

*

١- غرائز مترنّحة، معتقدات تالفة، أفكار ثابتة وخرَف. في كلّ

مكان غُزاةٌ متقاعدون ومرتزقون من إيرادات البطولة، في مواجهةِ كَمْ من «أَلاَرِيكْ»[٧] شابّ، يتربّصون بِكَمْ من روما وأثينا. في كلّ مكان مفارقات رخْوة. في السابق كانت دعابات الصالونات تخترق البلدان و تحوّل وجهة الحماقة أو تشحذها. أوروبا المغناج العنود كانت في زهرة العمر. لكنّها اليوم هرمت ولم تعد تثير أحداً. ومع ذلك فثمّة برابرة ينتظرون أن يرثوا دانتيلها ويزعجهم احتضارها الطويل.

٢- فرنسا، انكلترا، ألمانيا وربّما إيطاليا. أمّا البقيّة.عن طريق أيّ حادثة تتوقّف حضارة ما؟ لماذا لم يتح للرسم الهولنديّ أو التصوّف الإسبانيّ أن يزهر إلاّ للحظة؟ ما أكثر الشعوب التي ظلّت على قيد الحياة بعد وفاة عبقريّتها. لذلك كان انحدارها في سلّم المراتب بهذه التراجيديّة. أمّا انحدار فرنسا وأنكلترا وألمانيا فهو راجع إلى مهلكة داخليّة. نهاية مسيرة. واجب تمّ القيام به على أحسن وجه. إنّه اندحار طبيعيّ قابل للشرح ومُستَحَقّ. وهل كان في الإمكان غير ذلك؟ لقد ازدهرت هذه البلدان ثمّ أفلست سويّةً انطلاقًا من روح التنافس والأخوّة والحقد. فيما كان اللصوص الجُدد في بقيّة الكرة الأرضيّة يخزّنون الطاقة ويتكاثرون وينتظرون.

قبائل ذات غرائز متغطرسة تتجمّع لتشكّل قوّة كبيرة. ثمّ تأتي لحظة فإذا هي مستسلمة مرتعدة الفرائص لا تطمح إلى أكثر

من دور ثانويّ. حين نكفّ عن الغزو نقبل أن نُغزى. مأساة هانيبال كانت في أنّه ولد قبل الأوان بكثير. لو تأخّر لبعض القرون لوجد أبواب روما مفتوحة على مصاريعها. كانت الأمبراطوريّة شاغرة شأن أوروبّا هذه الأيّام.

٣- لقد تذوّقنا كلّنا من مرض الغرب. نحن نعرف عن أشياء مثل الفنّ والحبّ والدين والحرب، أكثر ممّا يسمح لنا بالاعتقاد فيها بعد الآن. ثمّ أنّ قرونًا عديدة اهترأت بها... عصر الكمال في الوفرة ولّى. مادّة القصائد؟ نفدت. الحبّ؟ حتّى الرعاع طلّقوا العاطفة. التقوى؟ فتّشوا الكاتدرائيّات، لم يعد يجثو فيها غير السخافة. من الذي يرغب في المقاومة بعد؟ لقد سقط البطل لانتهاء مدّة الصلوحيّة. وحدها المجازر ذات الفاعل المجهول مازالت صالحة للتداول. نحن دمى متحركة واعية صالحة فقط للتهريج أمام ما لا علاج له.

الغرب: مُمْكِنٌ لاَ غَدَ لَه.

٤- مع عجزنا عن الدفاع عن حيَلِنَا ضدّ العضلات، لن نكون صالحين لأيّ شيء مهما كان: سيقوم أوّل عابر بشدّ وثاقنا. تفرّجوا على الغرب: إنّه يفيض بالمعرفة والخزي والحماس. إلى هذا كان ينبغي أن يُفضي الصليبيّون والفرسان والقراصنة. إلى دهشة المهمّة المنجزة.

حين كانت روما تنسحب بفيالقها، كانت تجهل التاريخ

ودروس الغروب. ليست تلك حالنا. أيّ مسيح أسود سيهبط علينا؟

*

كلّ من استطاع عن غير قصد أو بسببٍ من عدم الكفاءة، إعاقةَ البشريّة ولو قليلا عن التقدّم، هو صاحب يد بيضاء على البشريّة.

*

الكاثوليكيّةُ لم تخلق إسبانيا إلاّ لإحكام خنقها. هي بلد لا نتجوّل فيه إلاّ للتملّي من محاسن الكنيسة، والحدس بالمتعة التي قد تكون في اغتيال خوريّ.

*

الغرب يتقدّم. ها هو يرفع خَرَفَهُ بخجَلٍ مثل من يرفع راية. - حتّى أنّي صرتُ أقلّ حسدًا لأولئك الذين شاهدوا روما تغرق، فظنّوا أنّهم يستمتعون بخراب فريد غير قابل للنقل أو التوريث.

*

حقائقُ الفلسفة الإنسانيّة، الثقةُ في الإنسان وما إلى ذلك، ليس لها حتّى الآن سوى فاعليّة الأخيلة وازدهار الظلال. الغَرْبُ كان هذه الحقائق لكنّه لم يعد غير هذه الظلال. هَاهو لا يقلّ فقرًا عنها، لذلك لم يعد في وسعه أن يتأكّد منها. إنّه

يجرّها وراءه ويقوم بعرضها لكنّه لم يعد قادرًا على فرضها. لقد كفّت عن أن تكون ذات تهديد. وهكذا، فإنّ من يتشبّثون بالفلسفة الإنسانيّة إنّما يلهجون بلفظٍ مُنْهَكٍ، دون دعامة عاطفيّة، لفظ شبحيّ.

*

لعلّ هذه القارّة لم تلعب بعدُ ورقتها الأخيرة. ماذا لو أخذت في نزع الأخلاق عن سائر العالم وأفشت فيه روائح عفونتها؟ لاشكّ أنّ ذلك سيكون بالنسبة إليها طريقة للاحتفاظ بمجدها وممارسة إشعاعها.

*

إذا كان للإنسانيّة أن تعيد بداية نفسها من جديد، في المستقبل، فإنّها ستعتمد في ذلك على فضلاتها، أي على المغول القادمين من كلّ مكان، وعلى حثالة القارّات. عندئذ ستتشكّل حضارة كاريكاتورية، وسيتفرّج عليها أولئك الذين أنشأوا الحضارة الأصليّة عاجزين شاعرين بالخزي متهالكين، لاجئين في النهاية إلى البلاهة، حيث يمكن لهم أن ينسوا دَوِيّ انهياراتهم.

هوامش "غرب":

١- مرّة أخرى لا يجد كاتب من القرن العشرين علامةً على الحداثة أفضل

من دون كيخوته Don Quichotte بطل الكاتب الإسبانيّ الشهير سيرفانتس Cervantès ١٥٤٧-١٦١٦م، هذا الذي خسر ذراعه في إحدى المعارك، وظلّ سجين القراصنة طيلة خمس سنوات، ولُعِنَ من طرف الكنيسة، وسُجن مرّة أخرى قبل أن يلتحق ببلاط فيليب الثالث... فلم تكن حياته المريرة إلاّ مصدراً لروح فكهة ساخرة مفعمة بحبّ الحياة.

٢- العبارة المعنيّة لبول فاليري Paul Valery الكاتب والمفكّر الفرنسيّ (١٨٧١-١٩٤٥م) هي: "نحن الحضارات، نعرف الآن أنّنا كائنات قابلة للموت". وقد وردت في:

Variété, la Crise de l'esprit (Gallimard)

٣- تعرّضنا سابقًا إلى لوثر Luther، أمّا جان كالفن Jean Calvin ، أو كوفن Cauvin المذكور هنا، فهو المصلح الفرنسيّ (١٥٠٩-١٥٦٤م) تلميذ لوثر، الذي استقرّ بجينيف وأراد أن يجعل منها مدينة نموذجيّة.

٤- أن نُجَوْنِبَهَا، أن نجعلها تتطبّع بطابع الجنوب، هكذا رأينا أن نترجم كلمة Méridionaliser.

٥- إذا كان من الممكن لعقل شغوف بالمفارقات مثل سيوران أن ينظّر للقيلولة والخمول واللاحركة، وأن ينوّه في الوقت نفسه بفيلسوف إغريقيّ مثل هيراقليطس ٥٥٠-٤٨٠ قم (Héraclite) أقام فلسفته على مفهوم الحركة، ولا شيء غير الحركة، فإنّه من اللافت للنظر، في سياق المفارقات نفسه، أن يبدأ حياته باعتناق أفكار الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون ١٨٥٩-١٩٤١م (Henri Bergson) جاعلاً منه موضوع رسالة جامعيّة، ثمّ ينقلب عليه بهذا الشكل، دون أن نراه يبتعد عنه جوهريًا في الكثير من نصوصه.

٦- ورد ذكر روسّو أعلاه، ورأينا أنّ سيوران وقف منه موقف بودلير نفسه، الذي كان ضدّ صرامة العقلانيّة التي صاحبت عصره، ولعلّ المفكّر الألمانيّ فريديريك هيغل ١٧٧٠ -١٨٣١م (Friedrich Hegel) موجود في المحور من هذه الصرامة، وهو "منظّر الجدليّة"، الذي جعل من المفهوم المبدأ الوحيد

الذي يوحّد بين الوجود والفكر.

٧- لدينا شخصيّتان تاريخيّتان تحملان اسم آلاريك Alaric، آلاريك الأوّل (٣٧٠-٤١٠م) وهو ملك أقوام الـ: Wisigoths الذي عاث فسادًا في الإمبراطوريّة الشرقيّة وغزا إيطاليا ونهب روما، وآلاريك الثاني، الذي صرعه كلوفيس Clovis سنة ٥٠٧ ميلاديّة.

سيرك العزلة

-١-

لا يستطيع أحد أن يحرس عزلته إذا لم يعرف كيف يكون بغيضًا.

*

لا أحيَا إلاّ لأنّ في وسعي الموت متى شئت. لولا فكرة الانتحار لقتلتُ نفسي منذ البداية.

*

الشكوكيّة التي لا تساهم في دمار صحّتنا ليست سوى رياضة ذهنيّة.

*

أن تُضمِر جبروت طاغيةٍ وأنتَ لا حوْلَ ولا قُوّة، أن تختنق بوحشيّةٍ مكظومة، أن تَكْرَهَ ذاتَكَ في غياب تابعٍ يُطاح به أو امبراطوريّة يُبَثُّ فيها الرعب، أن تكون تِيبَاريوس[1] فقيرًا...

*

المزعجُ في اليأس أنّه بديهيّ ومُوَثّق وذو أسباب وجيهة: إنّه ريبورتاج. والآن أمعِنوا النظر في الأمل. تأمّلُوا سَخاءَهُ في الغشّ، رُسُوخَهُ في التدجيل، رفضَه للأحداث: إنّه تيه وخيال. وفي هذا التيه تكمن الحياة ومن هذا الخيال تتغذّى.

*

قيصر؟ دون كيشوت؟ ترى من منهما قرّ قراري على اتّخاذه قدوة؟ لا يهمّ.

ما حدث هو أنّي ذات يوم، ومن مكان قصيّ، انطلقتُ لغزو العالم، لغزو كلّ حيرات العالم.

*

كُلّمَا أطْلَلْتُ على المدينة من فوق، بدا لي أنْ لا فرقَ في الشرف الحاصل للمرءِ، إن كان فيها خادم كنيسة أو قوّادًا.

*

لو كان عليّ أن أتخلّى عن ولعي بالفنون لما تخصّصتُ في غير العواء.

*

نكفّ عن أن نكون شبابًا لحظةَ نكفّ عن اختيار أعدائنا، راضين بأولئك الذين نجدهم في متناول اليد.

*

ضغائنُنا كلُّها ناشئة من كوننا ظللنا دائمًا تحتنا، فلم نستطع اللحاق بنا. وذاك ما لن نغفره أبدًا للآخرين.

*

تائهًا في الضباب، أتعلّق بأدنى أسىً كأنّه حبل نجاة.

*

هل تريدون مضاعفةَ عدد المُخْتلّين ومفاقمةَ الأمراض العقليّة

وبناء دُورٍ للمجانين في كلّ زاوية من زوايا المدينة؟
إذَنْ امنعوا التجديف[٢].

ساعتها تفهمون فضائلَهُ التنْفيسيّة، وظيفتَه العلاجيّة، تفوّقَ منهجه على منهج التحليل النفسيّ وعلى الرياضات الشرقيّة أو الكنائسيّة كلّها. ستفهمون خاصّة أنا مدينون في معظمنا، لروائع التجديف ولوقوفه إلى جانبنا في كلّ لحظة، بأن لا نكون مجرمين أو مجانين.

*

نولد ونحن نملك قدرة على الإعجاب لا تقْدرُ عشر كواكب أخرى على استنفادها. أمّا الأرض فتستنفدها مباشرة.

*

تنهض مثل صانع معجزات عازمٍ على تأثيث يومه بالخوارق، ثمّ تستلقي على سريرك من جديد لِتَلُوكَ حتّى الليل هموم العاطفة والمال.

*

صلتي بالناس أفقدتني نظارة عُصاباتي كُلَّها.

*

لاشيء يكشف عن السوقيّ مثل رَفْضِهِ أن يخيب ظنُّه.

*

حين يكون جيبي خاليًا من أيّ فلس، أرغم نفسي على تخيّل

سماء النور الصاخب التي تمثّل حسب البوذيّة اليابانيّة مرحلة من المراحل التي على الحكيم أن يعبرها لتجاوز العالم - وربّما عليّ أن أضيف، لتجاوز المال.

*

من بين أنواع النميمة كلّها، الأسوأُ هي تلك التي تستهدف كَسَلَنَا، تلك التي تشكّك في أصالته.

*

أيّام الطفولة، كنت أستمتع كثيراً مع رفاقي بمشاهدة حفّار القبور وهو يزاول عمله. أحياناً كان يناولنا جمجمة فنلعب بها لعبة كرة القدم. كان ذلك بالنسبة إلينا مصدراً لبهجة لا تنغّصها أيّ فكرة جنائزيّة.

وطيلة سنوات، عشت بين رهبان في رصيدهم آلاف مؤلّفة من لحظات المسح الأخير، إلاّ أنّي لم أتبيّن على أحدٍ منهم أيّ انشغال بالموت. في ما بعد كان عليّ أن أفهم أنّ الجثّة الوحيدة التي في وسعنا أن نحقّق من ورائها بعض الكسب، هي تلك التي تتهيّأ فينا.

*

بدون الله كلّ شيء عدم. والله؟ العدم الأقصى.

-٢-

الرغبة في الموت كانت همّي الأوحد والوحيد. في سبيله ضحّيتُ بكلّ شيء، حتّى بالموت.

*

يكفي أن يُداخِلَ الخلَلُ حيوانًا حتّى يبدأ في التشبّه بالإنسان. أُنظروا إلى كَلْبٍ أهوج أو عديم الإرادة: لكأنّه في انتظار روائيّه أو شاعره.

*

ما من تجربة عميقة إلاّ وهي تفصح عن نفسها بمفردات الفيزيولوجيا.

*

الإطراءُ يصنع من إحدى سمات الشخصيّة دميةً متحرّكة، وللحظةٍ، تأخذ العينان الأكثر حيويّةً تحت نعومته هيئةً بقريّة[٢].
ولمّا كان الإطراء يتسلّل أبْعَدَ من المرض، معطّبًا بالدرجة نفسها الغُدَدَ والأحشاء والفكر، فهو السلاح الوحيد المتاح لنا كي نستعبد أشباهنا ونفسدهم ونحطّم معنويّاتهم.

*

في التشاؤم تلتقِي طيبةٌ غير فعّالة بخبث غير مُشبع.

*

تخلّصتُ من الله بسبب حاجتي إلى التأمّل، تخلّصتُ من آخر

المزعجين.

*

كلّما أحاطت بنا المصائب صرنا أكثر تفاهة: مشيَتُنَا نفسها تتغيّر لذلك. المصائب تدفعنا إلى الاستعراض. تخنق فينا الشخص لتوقظ الشخصيّة.

لولا السفاهة التي جعلتني أعتقد بأنّي أكثر البشر تعاسةً، لانهرتُ منذ زمن طويل.

*

سبّةٌ كبيرة للإنسان أن نفكّر بأنّه محتاج إلى المساعدة أو إلى القدر، لتدمير نفسه... ألم يستهلك أغلب ذاته في تحطيم أسطورته الشخصيّة؟ في هذا الرفض للديمومة، في هذا التقزّز من الذات، مكمنُ عذره، أو كما كان يقال سابقًا، مكمنُ عظمته.

*

لماذا ننسحب ونغادر اللعبة، ما دام في وسعنا أن نخيّب ظنّ المزيد من الكائنات؟

*

تمنّيتُ كلّما وقعتُ ضحيّة العواطف المحمومة أو نوبات الإيمانأو لحظات عدم التسامح، أن أنزل عن طواعية إلى الشارع لأحارب وأموت متحزّبًا للضبابيّ، مستميتًا في

الدفاع عن الـ «ربّما».

*

حلمتَ بإحراق الكون ولم تستطع أن تُعْدِيَ بنارك حتّى الكلمات، ولا أن تشعل كلمة واحدة...

*

لمّا كانت دغمائيّتي قد تسرّبت في شكل تجديف، فهل بقي في وسعي سوى أن أكون شكّاكًا؟

*

كنتُ بصدد متابعة دروس جادّة حين اكتشفتُ أنّي سأموت ذات يوم. فاهتزّ تواضعي لذلك. ولمّا كنت قد اقتنعت بأنّه لم يعد لي ما أتعلّمه، فقد تخلّيت عن دراستي لأخبر العالم بهذا الاكتشاف العظيم.

*

يعتقد الهَدّام لفرط سذاجته، وباعتباره عقلاً إيجابيًا انحرف به المسار، أنّ الحقائق جديرة بالهدم. إنّه تقني في الاتّجاه المعاكس، متعالم في الونداليّة[٤]، مبشّر مسيحيّ ضالّ.

*

مع التقدّم في السنّ يتعلّم المرءُ مقايظة مخاوفه بقهقهاته.

*

كفّوا عن سؤالي عن برنامجي: أن أتنفّس، أليس برنامجًا

كافيًا؟

*

أفضل طريقة للابتعاد عنِ الآخرين تتمثّل في أن ندعوهم إلى الاحتفال بهزائمنا، بعد ذلك، نحن على يقين من أنّنا سنكرههم إلى آخر رمق في حياتنا.

*

«ينبغي عليك أن تعمل، أن تكسب قوتك، أن تستجمع قواك - قواي؟ لقد أهدرتُها، لقد استعملتها كلّها في محو آثار الله فيّ. والآن سأكون شاغرًا إلى الأبد».

*

ما من فعلٍ إلاّ وهو يداعب غرور الضبع فينا.

*

في أعمق أعماقِ عَجْزِنَا نقع فجأة على ماهيّة الموت - إنّه إدراكٌ أقصى، مستعصٍ على التعبير، هزيمةٌ ميتافيزيقيّة لا قبل للكلمات بإبلاغها. هذا يفسّر لماذا قد نجد في صرخات عجوز أمّيّة، بالنسبة إلى هذا الموضوع، إضاءةً أفضل ممّا نجده في رطانة فيلسوف.

*

الطبيعة لم تخلق الأفراد إلاّ للتخفيف عن الألم. لتمكينه من الانتشار على حسابهم.

*

يمتزج الألم والوعيُ بالألم حتّى لدى الأبله، في حين لابدّ من حساسيّةٍ مسلوخٍ أو من تقاليد عريقة في الرذيلة لنجمع مع المتعة الوعيَ بالمتعة.

*

كتمانُ الألم، إنزالُه إلى مرتبة النشوة - تلك هي حيلةُ الاستبطان، لعبةُ اللطفاء، ديبلوماسيّة الأنين.

*

لفرط تغييري المتواصل لوضعيّتي بالنسبة إلى الشمس، لم أعد أعرف على أيّ قدم أتعامل معها.

*

لا نحسُّ بمذاقٍ للأيّام إلاّ حين نتهرّب من ضرورة أن يكون لنا مصير.

*

كلّما ازدادت لامبالاتي بالبشر تضاعفت قدرتهم على التأثير فيّ، ومهما احتقرتهم فإنّي لا أستطيع الاقتراب منهم إلاّ متلعثمًا.

*

لو اعتصرنا دماغ مجنون، لبدا السائل النافذ منه أشبه بالرحيق، مقارنة بالسمّ الذي تدرّه بعض الأحزان.

*

لا يحاولنّ أحد الحياة إذا لم يتشبّع بآداب الضحيّة.

*

ليس الخجل ردّ فعل دفاعيّ، بقَدْرِ ما هو تقنية يتمّ تجويدها دون انقطاع بواسطة جنون العظمة الذي يصيب غيرَ المفهومين.

*

علينا أن نسكر طيلة حياتنا، إذا لم يسعفنا الحظّ بأبوين سكّيرين، لتعويض ذاك الميراث الثقيل المتمثّل في فضائلهما.

*

هل نستطيع أن نخوض بصدق إلاّ في شأن الله أو الذات.

-٣-

رائحة المخلوق تضعنا في أثر ألوهيّة نتنة.

*

لو كان للتاريخ غاية، لكان مصيرنا يثير الرثاء، نحن الذين لم ننجز شيئًا. أمّا في هذا اللامعنى الشامل، فقد بات في وسعنا نحن الحقراء الصعاليك الذين لا جدوى لهم، أن نرفع رؤوسنا فخورين بكوننا كنّا على حقّ.

*

يا لها من حيرة حين نكون غير واثقين من شكوكنا فنتساءل: هل هي حقًا شكوك؟

*

من لم يناقض غرائزه، من لم يفرض على نفسه فترة طويلة من الزهد الجنسيّ، من لم يجرّب متاعب التعفّف، سيظلّ مغلقًا أمام خطاب الجريمة كما أمام خطاب النشوة: لن يفهم أبدًا وساوس الماركيز دي ساد ولا وساوس القدّيس جون دي لا كروا(*).

*

ما من تبعيّة، وإن كانت إلى الرغبة في الموت، إلاّ وهي تُسْقِطُ قناعَ وفائنا لخديعة الأنا.

*

إذا أغوتكم الرغبة في فعل الخير، فاذهبوا إلى السوق، واختاروا من بين الجموع العجوز الأكثر فقرًا، ودوسوا على قدميها. فإذا ثارت ثائرتها، انظروا إليها دون أن تجيبوها، حتّى تستطيع بفضل النشوة التي يمنحها الإفراط في النعوت، أن تعرف أخيرًا لحظة سموّ.

*

لماذا التخلّص من الله للوقوع في الذات؟ لماذا تبادل الجثث هذا؟

*

الشحّاذ فقير متلهّفٌ على المغامرة، تَرَكَ الفقر من أجل استطلاع أدغال الرحمة.

*

لا يمكننا تجنّب عيوب البشر دون أن نهرب في الوقت نفسه من فضائلهم. هكذا نفلس بواسطة الحكمة.

*

الأملُ تكذيب للمستقبل.

*

على امتداد الأبديّة، اختار لنا الله كلّ شيء، حتّى ربطات أعناقنا.

*

لا حركة ولا نجاح دون اهتمام كلّي بالقضايا الثانويّة.
الحياة مهنةُ حشرات.

*

العناد الذي بذلتُه في مقاومة سحر الانتحار، كان يكفيني بسهولة لأحقّق خلاصي بالفناء في الله.

*

حين نفقد كلّ دافع، تسودّ الدنيا في أعيننا، وتصبح تلك السوداويّة الحافز الأخير. نصير عاجزين عن الاستغناء عنها فنتبعها في العرس كما في الجنازة. ويبلغ خوفنا من أن نحرم منها حدًّا أن تصبح عبارة «اِمنحونا خبزنا اليوميّ من الكآبة»، النغمة التي تصاحب كلّ انتظاراتنا وتوسّلاتنا.

*

مهما كانت خبرتنا بالعمليّات الذهنيّة فإنّنا لا نستطيع التفكير أكثر من دقيقتين أو ثلاث في اليوم. إلاّ إذا روّضنا أنفسنا بسبب من حرفة أو هواية، وطيلة ساعات، على تعنيف الكلمات كي نستخرج منها أفكارًا.
المثقّف يمثّل العاهة الأساسيّة، الفشل الذريع للهومو سابيانس.

*

ما يمنحني الوهم بأنّي لم أكن مخدوعًا تمامًا، هو أنّي لم أحبَّ شيئًا إلاّ كرهته في الوقت نفسه.

*

على الرغم من أنّنا متضلّعون في الإشباع، فإنّنا نظلّ صورة كاريكاتوريّة عن سلَفنَا كسرى[٦]. أليس هو من أصدر مرسومًا يرصد فيه جائزة سَنِيَّةً لمن يخترع لذّة جديدة؟ - كانت تلك أكثر المبادرات حداثة في العهود القديمة.

-٤-

كلّما كان عقلٌ في خطر، أحسّ أكثر بالحاجة إلى أن يبدو سطحيًّا، أن يتّخذ له مظهر الخفّة، أن يضاعف سوء الفهم في ما يخصّه.

*

مع تجاوز الثلاثين، يُفترض أن لا نعتني بالأحداث إلاّ كعناية المنجّم بالنميمة.

*

الغبيّ وحده مجهّز للتنفّس.

*

مع تقدّمنا في السنّ، ليست قدراتنا الذهنيّة أساسَ ما يتناقص لدينا، بقدر ما هو تلك القدرة على اليأس التي كنّا، في شبابنا، لا نعرف كيف نقدّر سحرها ولا كيف نثمّن إثارتها للسخرية.

*

من المؤسف أنّه ينبغي المرور بالإيمان في طريقنا إلى الله.

*

الحياة سُوقيّةُ المادّة.

*

دحضُ الانتحار: أليس من عدم اللياقة مغادرةُ عالَمٍ وضع نفسه بهذا الحماس في خدمة أحزاننا؟

*

مهما سكرنا بلا هوادة فلن نصل إلى ثقة ذلك الـ «كريزوس»[٧] المجنون الذي كان يقول : «لقد اشتريت الهواء كلّه كي يطمئنّ بالي، لقد جعلته من أملاكي».

*

لا ينشأ الحرج الذي نحسّ به أمام شخص مثير للسخرية، إلاّ من استحالة أن نتصوّره على فراش الموت.

*

لا ينتحر إلاّ المتفائلون، المتفائلون الذين لم يعودوا قادرين على الاستمرار في التفاؤل. أمّا الآخرون، فلماذا يكون لهم مبرّر للموت وهم لا يملكون مبرّرًا للحياة؟

*

أصحاب العقول الغاضبة؟ هم أولئك الذين ينتقمون في أفكارهم من الفرح الذي جادوا به في تعاملهم مع الآخرين.

*

كنت أجهل عنها كلّ شيء، لكنّ ذلك لم يمنع حديثنا من أنّ يتّخذ المنحى الأكثر جنائزيّة: كنت أحدّثها عن البحر،عن ذلك التعليق على سِفْر الجامعة[٨]، ولك أن تتصوّر دهشتي وأنا في

نهاية خطبتي عن هستيريا الأمواج، حين أطلقَتْ هذه العبارة: «ليس من الصالح أن نرثي لأنفسنا».

*

يا لتعاسة اللامؤمن، الذي لا يملك في مواجهة أرقِهِ غير ذخيرة ضئيلة من الصلوات.

*

هل من قبيل الصدفة، أنّ كلّ الذين فتحوا لي آفاقًا على الموت كانوا من حثالة المجتمع؟

*

المجنون يرحّب بأيّ كبش فداء. إنّه يصبر على انهياراته من موقع المتّهِم. وليست الأشياءُ في نظره أقلّ إثْمًا من البشر. إنّه يتحامل على من يريد، فالهذيان اقتصاد توسّعيّ ـ أمّا نحن، المجبورون على تمييز أكبر، فإنّنا لا نملك غير الانطواء على هزائمنا، متشبّثين بها، في غياب عثورنا خارجها على السبب أو الدافع: سدادُ الرأي يضطرّنا إلى اقتصاد مغلق، إلى سياسة الاكِتفاء الذاتي بالفشل.

*

قُلتم لي: من غير اللائق أن تطلق لسانك دون انقطاع في نظام الأشياء ـ هل هو ذنبي إن لم أكن غير أحد وصوليّي العصاب؟ غيرَ أيّوبٍ لاهث وراء جذام ما؟ غير بوذا مغشوش؟ غير واحدٍ

من قبائل السيث كسول ومنحرف[٩].

*

تبدو لي الأهجيات والزفرات مقبولة بالدرجة نفسها. أفتح أهجيةً أو كتابًا من كُتُبِ «فنّ الموت»[١٠] لأجد فيهما كلّ شيء صحيحًا. فأضطجع على الحقائق وأمتزج بالكلمات، ملتحفًا باللامبالاة التي تمنحها الشفقة.

«ستكون موضوعيًا» - تلك لعنة العدميّ الذي يؤمن بكلّ شيء.

*

في ذروة تقزّزنا، يبدو كأنّ فأرًا قد تسلّل إلى دماغنا ليحلم.

*

لن تكون تعاليم الرواقيّة أفضل ما يدلّنا على جدوى الإهانات أو جاذبيّة طعنات القدر. إنّ كتب تعليم اللاإحساس عقلانيّة أكثر ممّا يجب. ولكن ماذا لو قام كلّ منّا بتجربته الخاصّة كصعلوك، فارتدى أسمالاً، ووقف في مفترق طرق، ومدّ يده للمارّة، متعرّضًا إلى احتقارهم أو شاكرًا صدقاتهم! - ياله من انضباط! وماذا لو خرجنا إلى الشارع لشتم الغرباء وتلقّي صفعاتهم!

لطالما زرتُ المحاكم فقط للفرجة على العائدين من أصحاب السوابق، متملّيًا من مظاهر تفوّقهم على القوانين ولهفتهم على الانحدار. ومع ذلك فهم يثيرون الشفقة بالمقارنة مع

العاهرات، مع الأريحيّة التي يبدينها وهنّ في محاكم الآداب. كلّ هذه اللامبالاة تحيّر العقل. لا وجود لأثر من كبرياء. لا أقذع الشتائم يدميهنّ ولا أبشع النعوت يجرحهنّ. لقد أصبحت كلبيّتهنّ[11] شكلَ شرفهنّ. وقفت إحداهنّ وكانت في السابعة عشر من عمرها، رائعة في بشاعتها، تردّ على القاضي الذي كان يحاول أن ينتزع منها الوعد بأن لا تعود إلى ارتياد الأرصفة: «لا أستطيع أن أعدك بذلك سيّدي القاضي».

لا نعرف حجم قوّتنا الخاصّة إلاّ متى تعرّضنا إلى الإهانة. أمّا إذا أردنا أن نواسي أنفسنا على العار الذي لم يلحق بنا، فعلينا أن نلحقه بأنفسنا، أن نبصق على المرآة في انتظار أن يشرّفنا الجمهور ببصاقه. فلينجّنا الله من مصيرٍ مُحتَرَم.

*

لكم داعبتُ فكرة حتميّة المصير، لكم غذّيتها على حساب تضحيات لا تُحصى، حتّى انتهت في الأخير إلى التجسّد: وبعد أن كانت من بين المجرّدات، ها هي أمامي واقفة نابضة، تدهسني بكلّ الحياة التي منحتها إيّاها.

هوامش "سيرك العزلة":

١- تيباريوس Tibère الإمبراطور الرومانيّ الذي ولد سنة ٤٢ قبل ميلاد

المسيح وجلس على العرش بداية من سنة ١٤ بعد الميلاد، وتوفّي سنة ٣٧ ميلاديّة. خَلَفَ اوغسطس اباه بالتبنّي، وعرفَ عهدُه مرحلتين، الأولى سادها الإصلاح الإداريّ والإقتصاديّ، والثانية سادها البطش والإرهاب.

٢- كلمة Juron قد تعني ايضًا الشتيمة او السبّ، إلاّ انّ ذِكْرَ سيوران الكنيسة غلّب لدينا السياق الديني، لذلك فضّلنا استعمال كلمة "تجديف": الكفر بالنعم والكلام على الله بالكفر والإهانة.

٣- نسبة إلى البَقَر.

٤- ونداليّة، نسبة إلى أقوام الوندال الجرمانيّين الذين اجتاحوا فرنسا وإسبانيا وإفريقيا الرومانيّة في القرن الخامس للميلاد، فعاثوا فسادًا في كلّ مكان وصلوا إليه، وأصبحوا عنوانًا للقرصنة والنهب والتدمير، وانتهى ذكرهم مع احتلال البيزنطيّين إفريقيا سنة ٥٣٣م.

٥- إذا كان الكاتب الفرنسيّ المعروف باسم الماركيز دي ساد ١٧٤٠-١٨١٤م (D.A.F.De Sade) قد ترك العديد من الأعمال ذائعة الصيت، التي أصبحت المرجع الأساسيّ للساديّة من ناحيتي التنظير وتقديم الأمثلة، فقد يكون من المفيد التذكير بأنّ القدّيس الإسبانيّ جان دي لا كروا ١٥٤٢-١٥٩١م (Saint Jean De La Croix) ترك إلى جانب الكتابات الدينيّة، قصائد عديدة جعلت منه شاعرًا مرموقًا من شعراء "الصوفيّة المسيحيّة."

٦- كسرى الأوّل Xerxès ملك فارسيّ (٤٨٦-٤٦٥ قم)، ابن داريوس الأوّل، قمَعَ بشدّة ثورات بابل ومصر. ومات قتيلاً. وقد كانت سيرته موضوع أوبرا للمؤلّف الموسيقيّ الإيطاليّ كلاوديو مونتيفردي Claudio Monteverdi، وقد عرضت هذه الأوبرا بباريس سنة ١٦٦٠م.

٧- إشارة إلى كريزوس Crésus ٥٦١-٥٤٦ قم (sus) آخر ملوك ليديا Lydie، الذي كوّن ثروته من التجارة، مستغلًا مناجم الذهب التي عجّت بها بلاده، وأصبح من ثمّ الرمز الأسطوريّ للثراء الفاحش.

٨- إشارة إلى أحد أسفار الكتاب المقدّس، وهو السفر الذي يتضمّن التأكيد

على أنّ الحياة إلى زوال، وأنّ كلّ شيء باطل.

٩- قد لا يستطيع غير سيوران، أن يجمع بين بوذا الذي ورد ذكره سابقًا، وأيّوب Job الذي ذُكِر في القرآن وفي التوراة، وهناك سِفْرٌ باسمه، وهو رمز خضوع المؤمن لإرادة الله، وقبائل السيث Scythe، التي كانت تتكلّم الإيرانيّة، وكان موطنها في المنطقة بين نهري الدانوب Danube والدون Don، وانتهى ذكرها مع القرن الثاني قبل الميلاد.

١٠- استعمل سيوران عبارة: Ars Moriendi، وهي التسمية التي تُطلق على كتبٍ ورسوم ومحفورات، بدأ ظهورها منذ القرون الوسطى، وتتضمّن "وجهات نظر" متعدّدة، في كيفيّة تدبير الموت ومواجهته.

١١- نسبة إلى الكلبيّة Cynisme (راجع هوامشنا السابقة).

دين

لو كنت مؤمنًا بالله لما كان لزهوي حدّ، ولجُبْتُ الشوارع عاريًا تمامًا.

*

لكَمْ عَمدَ القدّيسون إلى استسهال المُفَارَقات، حتّى أصبح مستحيلاً أن لا نستشهد بهم في الصالونات.

*

حين نكون فريسة عذابٍ ذي شهيّةٍ تحتاج لإشباعها إلى ألف حياة وحياة، نفهم من أيِّ جحيم انبثقت فكرة تناسخ الأرواح.

*

ما من شيء إلاّ وهو موسيقى، باستثناء المادّة. الله نفسه ليس سوى هلوسة صوتيّة.

*

ملاحقةُ سوابق آهة يمكن أن تقودنا إلى لحظة الماقبل - تمامًا كما يمكن أن تأخذنا إلى اليوم السادس للخلق.

*

وحده الأرغنّ يبيّن لنا كيف تستطيع الأبديّة أن تتطوّر.

*

تلك الليالي التي نعجز خلالها عن المزيد من التوغّل في الله، وقد ذرعناه جيئة وذهابا في كلّ اتّجاه، وهرّأناه لفرط ما دسناه

بأقدامنا. تلك الليالي التي نخرج منها بفكرة أن نضعه في سلّة المهملات. أن نضيف إلى العالم نفاية أخرى...

*

ليس أسهل من تأسيس دين، لو لا يقظة السخرية. يكفي أن ندع المتسكّعين يتجمّعون حول شطحاتنا البليغة.

*

ليس الله من يتمتّع بميزة الحضور في كلّ مكان، بل الألم.

*

عند الملِمّات، نجد في السجائر العون الفعّال أكثر ممّا نجده في الأناجيل.

*

يروي سوزو[1] أنّه حفر بواسطة خنجر اسم يسوع في موضع القلب. لم يجر دمه هدراً، فبعد لحظات انبثق نور من جرحه. لِمَ لا تكون لي قوّة أكبر في عدم التصديق؟ لِمَ لا أستطيع، حافراً في لحمي اسماً آخر، اسم المنافس، أن أكون له بمثابة اللافتة الضوئيّة؟

*

أردت أن أستقرّ في الزمن فإذا هو غير قابل للسكنى. وحين التفتّ إلى الخُلود زلّتْ بِيَ القدم.

*

تأتي لحظة يقول كلّ لنفسه: «إمّا الله وإمّا أنا». ويدخل في معركة يخرج منها الإثنان منقوصَيْن.

*

السرُّ الذي ينطوي عليه كلّ شخص، يصادف دائمًا الآلام التي يتمنّاها.

*

بعد أن صاروا لا يعرفون من التجربة الدينيّة غير قلق التبحّر في الفقه، أصبح أهلُ الحداثة يعمدون إلى وضع المطلق في الميزان، يدرسون تنويعاته مدّخرين ارتعاشاتهم للأساطير - تلك الدوّامات الخاصّة بالعقول التأريخيّة - لقد تخلّوا عن الصلاة ليعتنوا بالتعليق على الصلاة. ما من صيحات دهشة أو تعجّب. لا شيء سوى نظريّات. صار الدين يقاطع الإيمان. في ما مضى كان الجميع يغامرون في الله حبًا أو كراهية، إلاّ أنّ الله الذي كان شيئًا غير قابل للنفاد، لم يعد اليوم - أمام يأس المتصوّفين والملحدين الشديد - غير مسألة من المسائل.

*

مثل كلّ مُحارِبِي الأيقونات، حطّمتُ أصنامي لأخُصَّ بِحُطَامِهَا قرابيني.

*

كم تفزعني القداسة. هذا التدخّل في مآسي الآخرين. هذا الكرم الوحشيّ. هذه الرحمة التي لا رحمة فيها ولا شفقة.

*

من أين جاء رعبنا من الزواحف؟ ألا يكون من خوفنا من إغواء أخير، من سقطة وشيكة لا قيام بعدها، تجعلنا نفقد حتّى ذكرى الفردوس؟

*

يا لذلك الزمن، حين كنت مع الفجر أسمع لحنًا جنائزيًّا فأظلّ أدندن به طيلة النهار، حتّى إذا جاء الليل تَلِفَ وتلاشى في شكل نشيد.

*

كم أنّ المسيحيّة مذنبة في كونها أفسدت الشكوكيّة. ما كان لإغريقيّ أن يجمع بين الأنين والشكّ. كان سيتقهقر قرفًا أمام باسكال، وأكثر أمام تضخّم الروح، التي أخذت منذ الصليب تُسْقِطُ عُمْلَةَ العقل.

*

أن أكون غير قابل للاستعمال مثل قدّيس.

*

حين نحنّ إلى الموت تنزل علينا طراوة هائلة، يحدث تحوّل في عروقنا، بحيث ننسى الموت ولا نفكّر إلاّ في كيمياء الدم.

*

الخلق كان أوّل ممارسة لفعل التخريب.

*

عديم الإيمان المعاشر للهاوية والثائر بسبب عجزه عن الفكاك منها، يعرب عن حماسة صوفيّة في بناء عالم هو من البعد عن العمق بحيث يشبه أحد باليهات رامو[٢].

*

مع كتاب «العهد القديم» كنّا نحذق إخجال السماء. كنّا نهدّدها بقبضة اليد. الصلاة كانت عراكًا بين المخلوق وخالقه. ثمّ جاء الإنجيل للمصالحة بينهما: تلك كانت غلطة المسيحيّة التي لا تغتفر.

*

الكائنات التي تعيش بدون ذاكرة لم تغادر الفردوس بعد. النباتات ما زالت تتمتّع بالحياة هناك. لم يُحكم عليها بالخطيئة، بتلك الاستحالة في النسيان، أمّا نحن، كُتل الندم المتنقّلة، إلخ.إلخ.

(الحسرة على الفردوس ـ لا يمكن أن نكون أبعد عن الموضة ممّن يعتنق هذه الفكرة، ولا أن نذهب أكثر منه في التعلّق باللاجدوى والبداوة.)

*

يا إلهي. بدونك أنا مجنون وبك أنا مجنون أكثر. ذاكَ في أفضل الحالات ما يمكن أن ينتج من العبارات عند إعادة الاتّصال بين فاشل التحت وفاشل الفوق.

*

أكبر أعمال الألم أنّه نظّم الكاوس[٣]، أنّه سقط به إلى مرتبة الكون.

*

كم كانت تغوينا الكنائس، لو غاب عنها المؤمنون ولم يبق فيها غير تشنّجات الله، تلك التي يكاشفنا بها الأرغنّ.

*

حين ألامس السرّ الغامض دون أن أستطيع السخرية منه، أسأل ما جدوى هذا التلقيح ضدّ المطلق الذي تمثّله اليقظة.

*

كم من صعوبات للوصول إلى الصحراء. أمّا نحن، ولأنّنا أذكى من الزهّاد الأوائل، فقد تعلمنا أن نبحث عنها فينا.

*

حوّمتُ حول الله تحويمَ الوُشَاة. تجسّستُ عليه لمّا عجزت عن التوسّل إليه.

*

منذ ألفي عام والمسيح ينتقم منّا لكونه لم يمت فوق أريكة.

*

المتسكّعون لا شأن لهم بالله. المجانين والسكارى، هؤلاء الاختصاصيّون الكبار، يجعلونه مادّة اجترارهم.

إنّنا مدينون لبقيّة باقية من سداد الرأي بميزة كوننا مازلنا سطحيّين.

*

أن يخلّص نفسه من سموم الزمن ليحتفظ بسموم الأبديّة، تلك هي ألعاب المتصوّف الصبيانيّة.

*

إمكانيّة أن يتجدّد بفضل الهرطقة، تمنح المؤمن تفوّقًا واضحًا على غير المؤمن.

*

لا يمكن أن نسقط أسفل من أن نتحسّر على الملائكة، إلاّ حين نتمنّى أن نصلّي إلى أن يتحوّل الدماغ إلى سائل.

*

ترتكب الكلبيّة[1]، أكثر من الدين، خطأ إيلاء اهتمام أكبر ممّا يجب بالإنسان.

*

بين الفرنسيّين والله تقف الحيلة.

*

قمتُ كما هو مطلوب، باستعراضٍ كامل لكافّة الحجج المساندة لله. فبدا لي أنّ غيابه قد خرج من كلّ ذلك سالمًا موفورًا. إنّ له عبقريّة غريبة في أن ينفي نفسه في كلّ أعماله. المدافعون عنه يجعلونه فظيعًا، والعابدون له يجعلونه مشبوهًا. ليس على من يخشى أن يحبّه غير أن يقرأ القدّيس توما(٥).

وأفكّر الآن في ذلك الأستاذ من أوروبّا الوسطى وهو يسأل إحدى طالباته عن البراهين المثبتة لوجود الله. فامتثلت على الفور، موردة الحجج التاريخيّة والأنطولوجيّة إلخ. إلاّ أنّها سرعان ما أضافت: ومع ذلك فأنا لا أومن به. فتضايق الأستاذ وعاد إلى البراهين واحدًا واحدًا يشبعها تحليلاً وتفسيرًا. هزّت الطالبة كتفيها وتشبّثت بشكوكيّتها. فوقف الأستاذ قائلاً وقد احمرّ وجهه إيمانًا: ولكنيّ يا آنسة، أقسم لك بشرفي أنّه موجود.

ذاك برهان كافٍ لوحده كي يعوّض مجموع ما جاءت به الثيولوجيا.

فماذا نقول عن الخلود؟ إنّ البحث عن تفسيره أو حتّى الخوض فيه يُعَدّ من العبث الصراح. ولكنّ ذلك لم يمنع تكاثر الكتب التي تكشف عن فتنته المستحيلة. ولو صدّقنا أصحابها لكفانا أن نثق ببعض الاستنتاجات المعادية للزمن،

كي نظفر بالأبديّة، ناجين من الغبار معفيّين من الاحتضار.
ليست هذه الترّهات هي التي جعلتني أشكّ في هشاشتي. ولكن كم أثّرت فيّ تأمّلات صديق هرم، موسيقيّ متجوّل ومجنون، كان مثل كلّ الممسوسين مولعًا بطرح المسائل على نفسه. وقد «حلّ» كميّة لا بأس بها من هذه المسائل. في ذلك اليوم، وبعد أن فرغ من جولته العاديّة على أرصفة المقاهي، اقترب منّي وسألني عن الخلود. «لا يمكن التفكير فيه» أجبته، وأنا مجذوب ومصدوم في الوقت نفسه بعينيه الهرمتين وتجاعيده وأسماله. لكنّه كان مسكونًا بيقين لا يتزحزح. «تخطئ إذا لم تؤمن بالخلود.» قال... «إذا لم تؤمن به لم تقدر على الاستمرار في الحياة. أنا واثق من أنّ الموت لن يقدر معي على شيء. على أيّ حال ومهما قلت، فإنّ لكلّ شيء روحا. انظر مثلا إلى تلك العصافير، هل رأيتها تحوّم في الشوارع ثمّ ترتفع فجأة لتحلّق فوق المنازل وتنظر من هناك إلى باريس؟ إنّها تملك روحًا، لذلك فهي لا يمكن أن تموت.»

*

لتستعيد سيطرتها على العقول، لا بدّ للكاثوليكيّة من «بابا» أهوج، تفترسه التناقضات، يوزّع الهستيريا ويسيطر عليه حماس أرعن للتطرّف، متوحّش لا تردعه ألفا سنة من التيولوجيا. هل تكون منابع الجنون قد نضبت تمامًا من روما

ومن سائر البلاد المسيحيّة؟ منذ القرن التاسع عشر لم تعد الكنيسة المؤنسنة تنتج غير انشقاقات من الدرجة الثانية، وقدّيسين باهتين، وبعض عمليّات الطرد والتكفير التي تكاد لا تلفت الانتباه. لا بدّ لها من مجنون، إذا لم يكن لإنقاذها، فلإلقائها في هاوية جديدة.

*

من بين كلّ ما أنتجه علماء اللاهوت، الصفحات الوحيدة الجديرة بالقراءة والعبارات الوحيدة الحقيقيّة، هي تلك التي خصّوا بها الخصوم. كم تتغيّر نبرتهم وكم تحتدم مواهبهم حين يديرون الظهر إلى النور ويفرغون إلى العتمة. لكأنّهم يعودون أخيرًا إلى ميدانهم الطبيعيّ. لكأنّهم يعيدون اكتشاف أنفسهم من جديد. أخيرًا في وسعهم أن يكرهوا. لقد سُمح لهم بذلك. وهكذا يغيب ذلك الخرير الخلاّب والاجترارات التربويّة. الحقد يمكن أن يكون حقيرًا، لكنّ فقدانه قد يكون أكثر خطورة من الإفراط فيه. وقد أفلحت الكنيسة لفرط حكمتها في تجنيب أبنائها مغبّة ذلك. وها هي تدعوهم إلى تلبية غرائزهم بإثارتها ضدّ الشيطان. فإذا هم يتشبّثون به ويقضمونه. ومن حسن الحظّ أنّه «عظم» لا ينفد. ولو حرموا منه لوقعوا فريسة الرذيلة أو الخمول.

*

لَحْظَةَ نتصوّر أنّنا أخرجنا الله من الروح، يكون قد استقرّ بها أكثر. ونحن نحسّ جيّدًا بأنّه يشعر بالضجر هناك، لكنّنا لم نعد نملك من الإيمان ما يكفي للترفيه عنه.

*

أيّ عزاء يمكن أن يقدّمه الدين لمؤمن خيّب ظنّه الله أو الشيطان.

*

ولماذا ألقي بسلاحي؟ لم أخض بعد التناقضات الممكنة كلّها. ما زلت أعيش على أمل زقاق جديد.

*

منذ سنوات وأنا أخرج من المسيحيّة على مرأى ومسمع.

*

العقيدة تدفع إلى الوقاحة. ما أن تعتنقها حتّى تنشّط فيك غرائزك الشرّيرة. كلّ من لم يشاركك فيها يأخذ هيئة المهزوم العاجز الذي لا يستحقّ غير الشفقة والازدراء. لاحظوا «المغرمين الجدد» بالسياسة وخاصّة بالدين، كلّ الذين أفلحوا في إدخال الله طرفًا في أحابيلهم، الذين انقلبوا على عقائد سابقة، أثرياء المطلق الجدد. وقارنوا رقاعتهم بالتواضع وحسن السلوك الذي يغلب على أولئك الذين شرعوا بعد في فقدان إيمانهم وقناعاتهم.

*

على حدود الذات. ما عانيتُه. ما أعانيه. لن يعلم به أحد. ولا حتّى ذاتي.

*

حين نحطّم روابطنا، لفرط شهيّتنا إلى العزلة، يكتنفنا الفراغ: ما من شيء بعد.

ما من أحد. بمن سنفتك إذنْ؟ أين نعثر على ضحيّة طويلة النفَس؟ إنّ من شأن حيرة مثل هذه أن تفتحنا على الله: على الأقلّ، معه هو نحن واثقون من القدرة على «الانفصال» باستمرار.

هوامش "دين":

١– هو الأب الألماني هاينريش سوز Heinrich Seuse، الشهير في فرنسا بسوزو Suso ، تأثّر بالمعلمّ إيكارت Eckhart في البداية، ثمّ أصبح صاحب طريقة أكثر باطنيّة، قوامها الاستسلام والغياب.

٢– هو المؤلّف الموسيقيّ الفرنسيّ ذائع الصيت جان فيليب رامو Rameau Jean Philippe (١٦٨٣–١٧٦٤م) الذي ساهم في إحكام علم الهَرْمَنة (أصول توافق النغمات والآلات الموسيقيّة) تطبيقًا وتنظيرًا، وعُرف بكثرة الزخرفة في العديد من أعماله، ويعتبره عدد من النقّاد، على العكس من رأي سيوران فيه، من بين الذين ذهبوا بالإحساس الدرامي إلى أقصاه في الكثير من الآثار التي خلّفها.

٣– الكاوس Chaos أو الشواش أو العماء الأوّلي (راجع هوامشنا السابقة).

٤- الكلبيّة Cynisme (راجع هوامشنا السابقة).

٥- هو اللاهوتي الإيطاليّ القديس توما ١٢٢٥-١٢٧٤م (Thomas d'Aquin Saint) الذي أقام جوهر تعاليمه على ضرورة التناغم بين العقل والإيمان.

حيويّة الحبّ

لا ترضخ للمَلَل إلاّ الطبائع الإيروسيّة التي خاب ظنّها مسبّقًا في الحبّ.

*

إنّ حبًا يخيب، هو محنة فلسفيّة تملك من الثراء ما يتيح لها أن تخلق من حلاّقٍ نظيرًا لسقراط.

*

فنّ الحبّ؟ أن تعرف كيف تجمع طبيعةَ ممتصٍّ دماء إلى تخفّي فراشة.

*

في البحث عن الغمّ وفي الإصرار على العذاب، لا ينافس الشهيدَ إلاّ الغيور. ومع ذلك فهم يقدّسون أحدهما ويستخفّون بالآخر.

*

لماذا «نعش الزواج»؟ لِمَ لا «نعش الحبّ»؟ كم كانت عبارة بليك[١] مؤسفة.

*

أُونَان، ساد، مازوخ[٢]، يا لهم من محظوظين. أسماؤهم لن تبلى أبدًا.

*

حيويّة الحبّ. لن نستطيع أن نقول العكس دون أن نكون ظالمين، في شأن إحساس استطاع أن يعيش رغم الرومانسيّة والمقاصير.

*

فلان الذي ينتحر من أجل صعلوكة، يمارس تجربة أكثر كمالاً وعمقًا من البطل الذي تحتفل به الجموع.

*

من منّا يستهلك نفسه في الجنس، لو لا أمله في لحظة لا تتعدّى الثانية إلاّ بقليل، تمكّنه من أن يفقد عقله طيلة الحياة.

*

أحلم احيانًا بحبّ بعيد وضبابيّ كأنّه شيزوفرينيا رائحة.

*

إحساسُ المرءِ بدماغه. ظاهرة تضرُّ بالتفكير كما تضرّ بالفحولة.

*

أن تدفن جبينك بين نهدين. بين قارّتين للموت.

*

ثمّة راهب وجزّار يتحاربان داخل كلّ رغبة.

*

لا علاقة بالعقل وباحترامنا لأنفسنا إلاّ للعواطف التي يتظاهر

بها الشخص، والهذيانات التي يصطنعها. إنّ العواطف الصادقة تفترض عدم اهتمام بالذات.

*

لو كان آدم سعيدًا في الحبّ لَجَنَّبَنَا التاريخ.

*

فكّرتُ دائمًا بأنّ ديوجين[٣] قد تعرّض في شبابه إلى بعض الخيبات العاطفيّة:

لا يمكن لأحد أن يختار طريق السخرية دون أن يكون مصابًا بمرض جنسيّ أو خادمة لا تحتمل.

*

ثمّة إنجازات لا يمكن أن نغفرها إلاّ لأنفسنا: لو تصوّرنا الآخرين في ذروة نوع معيّن من الشهقات، لتعذّر علينا أن نمدّ اليد لمصافحتهم بعد.

*

الجسد نقيض للرحمة. الالِتذاذ قادر على تحويل قدّيس إلى ذئب.

*

بعد الاستعارات، تجيء الصيدليّة. هكذا تهترئ المشاعر الكبيرة.

*

تبدأ كشاعر وتنتهي كطبيب نسائيّ. من بين كلّ الأوضاع، لا أرى وضعًا لا يحسد عليه صاحبه مثل وضع العاشق.

*

نعلن الحرب على الرخويّات ونركع أمام نتونة مومس. ماذا تستطيع الكبرياء ضدّ نداء الروائح؟ ضدّ البخور الحيوانيّ؟

*

لو نتصوّر حبًّا أكثرَ عفّةً من ربيع، أحزَنَهُ تناكح الزهور فأخذ يبكي عند عروقها...

*

أستطيع أن أتفهّم وأشرّع لكلّ الأمور غير العاديّة في الحبّ وفي كلّ شيء، ولكن أن يكون هناك عنّينون بين الأغبياء، فهذا ما يتجاوز قدرتي على الفهم.

*

الجنس: بلقنيّة٤ الأجساد، جراحة ورماد، بهيميّة من يبدو أمامك قدّيسًا، الدويّ الصارخ لانهيار مضحك لا يُنسى.

*

في لحظة النشوة كما في لحظة الرعب نعود إلى أصولنا: الشمبانزي الذي احتُقِر ظلمًا يظفر أخيرًا بالمجد على مسافة صرخة.

*

شيء من السخرية في ممارسة الجنس يجعلها مزيّفة، يحوّل ممارس الجنس إلى عدوّ للنوع.

*

ضحيّتان منهمكتان مذهولتان بعذابهما، بهلاكهما المسموع. إلى أيّ استعراض بائس تأخذنا صرامة الحواسّ وجديّة الجسد؟ أن تنفجر ضحكًا في ذروة الشهقة، تلك هي الوسيلة الوحيدة لتحدّي أوامر الدم ونواهي البيولوجيا.

*

من منّا لم يسمع بَوْحَ بائسٍ مسكين يبدو تريستان[*] بإزائه تاجرَ رقيق؟

*

كرامة الحبّ لا تتمثّل إلاّ في حنان خسر كلّ أوهامه، حنان نجا من لحظة سيلانٍ لعاب.

*

لو عرف العنّينون كم أنّ الطبيعة كانت أمّا حنونًا معهم، لباركوا سُبات الأيور وتباهوا به في الشوارع.

*

منذ عنّ لشوبنهاور لسبب غريب أن يدخل الجنس في الميتافيزيقا، ومنذ خطر لفرويد أن يعوّض المجون بما يسمّى علم الاضطرابات، أصبح من الجائز لأوّل عابر سبيل أن

يحدّثنا عن «دلالة» بطولاته وخيباته ونجاحاته. المُسارّات كلّها تنطلق من هناك. المحادثات كلّها تفضي إلى ذلك. عمّا قليل ستقتصر علاقتنا مع الآخرين على تسجيل جِماعاتهم الحقيقيّة أو المخترعة. إنّه مصير نوعنا الذي عاث فيه الاستبطان وتفشّت فيه الأنيميا، أن يعيد إنتاج نفسه في الكلام، أن يفرش لياليه على قارعة الطريق مضخّمًا عيوبها أو انتصاراتها.

*

كلّما كان العقل مجرّبًا خبيرًا بكلّ شيء، اشتدّ الخطر إذا هو وقع في الحبّ، أن يردّ الفعل مثل الصبيّة غير المجرّبة.

*

طريقان أمام الرجل والمرأة: الشراسة أو اللامبالاة. كلّ شيء يوحي بأنّهما اختارا الطريق الثانية. بأنّه لن يكون بينهما حوار ولا قطيعة، لكنّهما سيواصلان الابتعاد كلّ عن الآخر. بأنّ اللواط والسحاق اللذين تقترحهما المدارس والمعابد سيتفشّيان في الحشود. بأنّ أعدادًا هائلة من الرذائل الملغاة ستصبح سارية المفعول من جديد. وبأنّ أساليب علميّة ستعوّض منتجات الرعشة ولعنة الزوجين.

*

الحبّ خليط من التشريح والنشوة، ذروة ما لا يذوب وما لا

ينحلّ، غذاء مثاليّ للنهم إلى الخيبة، وهو ما سيقودنا إلى العالم السفليّ للمجد.

*

ومع ذلك نحبّ دائمًا. وهذه الـ «مع ذلك» تستغرق أبدًا بحاله.

هوامش "حيويّة الحبّ"

١– هو الشاعر والرسّام البريطاني وليام بليك ١٧٥٧–١٨٢٧م (Blake William)، صاحب مطوّلات غنائيّة وملحميّة جعلت منه أحد ممثّلي الجيل الأوّل من الرومانسيّين. والعبارة التي أشار إليها سيوران وأوردها بالإنكليزيّة داخل نصّه، هي: The Marriage Hearse والكلمة Hearse تقابلها في الفرنسيّة كلمة Corbillard وتعني عربة نقل الموتى. وقد فضّلنا استعمال كلمة "نعش".

٢– كان من المتوقّع، بعد ذكره ساد، أن يتعرّض سيوران إلى الكاتب النمساويّ ليوبولد. س. مازوخ ١٨٣٦–١٨٩٥م (V.Sacher-Masoch Leopold.) صاحب كتاب "فينوس ذات الفراء" الذي أصبح رمزًا للمازوشيّة، أو إيروسيّة الالتذاذ بالألم. أمّا أُونان Onan، فهو الابنُ الثاني ليهوذا Juda، وقد تزوّج أونان أرملة أخيه أره Er، ولمّا كان لا يريد أن يُعطي أخاه نسْلاً فقد كان يجامعها فيلقي بمنيّه على الأرض، وجاء في سفر التكوين: "فقبُح في عيني الربّ ما فعله فأماته..."

٣– هو الفيلسوف اليونانيّ ديوجين أو ديوجينس الكلبيّ ٤١٠–٣٢٣ قم (Diogène le Cynique)، الذي اشتهر باحتقاره المال والجاه والتقاليد الاجتماعيّة، وظلّ ساخرًا من كلّ شيء، مفضّلاً العيش في برميل.

٤– العبارة الأصليّة: Balkanisme des corps نسبة إلى شبه جزيرة البلقان ، التي اندلعت منها شرارات أغلب الحروب الأوروبيّة، بسبب تناحر الأعراق

والأديان على امتداد الزمن.

٥- إشارة إلى "تريستان وإيزولت" Tristan et Iseult، إحدى أساطير القرون الوسطى التي أصبحت رمزًا للغرام المقترن بالموت.

في الموسيقى

لمّا كنتُ قد ولدت بروح عاديّة، فقد طلبتُ روحا أخرى من الموسيقى. كان ذلك بداية مأسٍ لم أكن أجرؤ على تمنّيها.

*

لولا امبرياليّتها كمفهوم لقامت الموسيقى مقام الفلسفة. ولكانت من ثَمَّ فردوس البداهات غير المعبّر عنها، عدوى من النشوة.

*

بتهوفن أفسد الموسيقى: أدخل عليها اللحظات المزاجيّة. سمح بتسلّل الغضب.

*

لولا باخ[1] لظلّت التيولوجيا بدون موضوع، والخليقةُ تخييليّةً، والعدمُ باتًّا.

*

إذا كان ثمّة من هو مدين بكلّ شيء لباخ، فهو الله.

*

وماذا تساويّ أيّ «ميلودي»[2] بإزاء تلك التي تخنقها فينا الاستحالة المزدوجة للحياة والموت.

*

ولماذا نعاشر أفلاطون إذا كان أيّ ساكسوفون قادرًا هو

أيضًا على أن يكشف لنا عن عالم آخر.

*

لمّا كنتُ بلا دفاع ضدّ الموسيقى، فقد توجّب عليّ أن أستسلم إلى استبدادها، وأن أكون حسب مشيئتها، إلَهًا أو ثوبًا رثًا.

*

مرّت بي لحظات، كنتُ خلالها أستبعدُ وجود أبديّة في وسعها أن تفصل بيني وبين موتزارت، ومن ثمّ، كنت أفقدُ كلَّ خوفٍ من الموت. حدث الأمر نفسه مع كلّ موسيقيّ. مع الموسيقى كلّها.

*

شوبان نَذَرَ البيانو إلى مرتبة السلّ الرئويّ.

*

العالَمُ المسموع: المحاكاةُ الصوتيّة لما لا يوصف. اللغزُ المنشور. اللانهائيّ المرئيّ والمستعصي على المَسك.حين يحدث لنا أن نمتحن فتنته، يصبح حلمُنا الوحيد أن نُحَنَّطَ في آهة.

*

الموسيقى هي ملجأ الأرواح التي جرّحتها السعادة.

*

لا موسيقى حقيقيّة غير تلك التي تجعلنا «نحِسُّ» الزمن.

*

اللانهائيّ «الراهن»، الذي تعتبره الفلسفة غير معقول، هو حقيقة الموسيقى وماهيّتها.

*

لو أنّي استسلمت إلى إغواءات الموسيقى ومدائحها لي، وإلى كلّ العوالم التي بعثتها ودمّرتها في داخلي، لكنت منذ زمن بعيد قد فقدت عقلي من الزهو.

*

طموح الشمال إلى سماء أخرى أنشأ الموسيقى الألمانيّة، فإذا هي هندسةُ فصولِ خريفٍ متعاقبة، كحولُ مفاهيم، سُكْرٌ ميتافيزيقيّ.

أمّا إيطاليا القرن السابق، سوق الأصوات، فقد افتقرت إلى بُعْدِ الليل، إلى فنّ اعتصار الظلال لاستخراج رحيقها.

لابدّ من الاختيار بين الانحياز إلى برامز(٣) أو إلى الشمس.

*

الموسيقى منظومةُ وداع، توحي بفيزياءٍ ليست نقطةُ انطلاقها من الذرّات بل من الدموع.

*

لعلّي قد راهنت أكثر ممّا يجب على الموسيقى، لعلّي لم أحْتَطْ بما يكفي من بهلوانيّات الرائع، من دَجَلِ الجميل.

*

تنبعث من بعض «متباطئات[٤]» موتزارت موجات يأس شفّافة، كأنّها حلم بجنازة في حياة أخرى.

*

كُلّما عجزت الموسيقى نفسها عن إنقاذنا، التمع في أعيننا بريقُ خنجر. لم يبق شيء يسندنا إن لم يكن الافتتان بالجريمة.

*

كم أودّ لو متّ بواسطة الموسيقى، عقابًا لي على شكّي أحيانًا في جبروت قدراتها الشرّيرة.

هوامش "في الموسيقى"

١- قد يكون من المفيد، أن نلاحظ مرّة أخرى إعجاب سيوران "الشكّاك" وصاحب الحملات الهوجاء على كلّ ما له صلة بالتيولوجيا، بالمؤلّف الموسيقيّ الألماني الكبير يوهان سيباستيان باخ ١٦٨٥-١٧٥٠ (Bach Johann Sebastien) الذي خلّدته أعماله ذات النزعة الدينيّة، أساسًا.

٢- يمكن استعمال كلمة "لحن"، أو "نغم"، إلاّ أنّنا فضّلنا كلمة ميلودي Mélodie.

٣- قد يبدو المؤلّف الموسيقيّ الألمانيّ يوهان برامز ١٨٣٣-١٨٩٧ (Johannes Brahms) مختلفًا عن باخ من حيث البعد الدينيّ لموسيقاه، فقد برع أساسًا في مجال الأغنية، وفي ما يسمّى بـ"موسيقى الغرفة"، وترك معزوفات شهيرة للبيانو، إلى جانب أربع سمفونيّات على درجة عالية من

الغنائيّة. إلاّ أنّه ألف أيضًا في مجال الموسيقى الدينيّة، عمله المعروف بـ Requiem allemand (1869).

٤– متباطئات: Andantes (نسبة إلى الإيقاع الموسيقيّ البطيء).

دوار التاريخ

حين كانت البشريّة في بداياتها تتمرّن على الشقاء، لم يتصوّر أحد أنّها ستقدر يومًا على إنتاجه في شكلٍ مُسَلْسَل.

*

لو كانت لـ «نوح» القدرة على قراءة الغيب لَثَقَبَ فُلْكَهُ دون شكّ.

*

تململات التاريخ تظهر عند التحليل النفسي تماما ككلّ دوافع الحركة: أن تتحرّك هو خيانة للعقل، هو أن تكون عرضة لكمامة المجانين.

*

الأحداث أورام الزمن.

*

التطوّر: لو عاش بروميثيوس[1] في زمننا هذا لكان أحد نوّاب المعارضة.

*

ساعة الجريمة لا تدقّ بالنسبة إلى كلّ الشعوب في الوقت نفسه. هكذا تُفسّر ديمومة التاريخ.

*

طموح كلّ منّا أن يسبر غور الأسوأ، أن يكون النبيّ الكامل. ولكن هيهات. فما أكثر المصائب التي لم تدر بخلدنا.

*

في عقب القرون الأخرى التي مارست التعذيب بلامبالاة، يبدو قرننا هذا أكثر حرصاً على الإتقان، إنّه يضيف إلى هذه الممارسة طهرانيّةً تشرّف وحشيّتنا.

*

ما من استنكار، تشكّيًا كان أو انتماءً إلى الشيطان[٢]، إلاّ وهو عرقلةٌ لتطوّرنا الذهنيّ.

*

الحريّة هي أقصى ممتلكات أولئك الذين تحرّكهم إرادةُ أن يكونوا متطرّفين.

*

سباحةٌ في الضباب أن تقول أنا أميل إلى هذا النظام أكثر من ذاك. الأصحّ أن تقول أنا أفضّل هذا البوليس على ذاك. ذلك أنّ التاريخ يُختصر في ترتيبٍ لأنواع البوليس. إذ فيم يبحث التاريخ إن لم يكن في فهم البشر للجاندارمة[٣] عبر العصور؟

*

كفّوا عن محادثتنا في شأن الشعوب المستعبدة ورغبتها في الحريّة. الطغاة يُقْتَلون دائمًا بعد فوات الأوان، وذاك عذرهم الكبير.

*

في العهود الآمنة، ونظرًا إلى كوننا نكره من أجل متعة الكراهية، علينا أن نبحث عن أعداء يرضون بنا. تلك هي المشاغل التي لا تُجَنِّبُنَا مَغَبَّتَها إلاّ العهودُ المضطربة.

*

الإنسان يسيل خرابًا.

*

الغَجَر[٤]، كشعب مختار حقًا، لا يتحمّلون مسؤوليّة أيّ حدث ولا أيّ مؤسّسة. لقد انتصروا على الأرض بفضل عدم اهتمامهم بتأسيس أيّ شيء فيها.

*

بضعة أجيال أخرى ويغدو الضحك الذي هو حكر على بعض النخبة، مستعصيًا على الممارسة، تمامًا مثل النشوة.

*

قل إنّ الأمّة قد انطفأت إذا هي لم تعد تردّ الفعل أمام موسيقى الفرق النحاسيّة. الانحطاط هو موت الترمبيطة[٥].

*

الشكوكيّة هي مهيّج الحضارات الفتيّة وخَجَلُ الحضارات الهرمة.

*

طرق العلاج الذهنيّ تتكاثر لدى الشعوب الرخيّة: إنّ غياب

القلق الفوريّ يحافظ فيها على مناخ جنائزيّ. للمحافظة على صحّتها العصبيّة تحتاج الأمّة إلى بؤس جوهريّ، موضوعٍ لوساوسها، وإلى رعب إيجابيّ يبرّر «عُقَدَها». المجتمعاتُ تلتحم في الخطر وترتخي في الحياد. وحيث يتفشّى السلام والنظافة والرخاء يتكاثر العُصاب.

أنا قادم من بلد، لأنّه لم يعرف السعادة، فهو لم ينتج غير محلّل نفسيّ واحد.

*

حين يُشْبِع الطغاة شراستهم يتحوّلون إلى رجال طيّبين. وكان يمكن أن تعود الأمور إلى نصابها لولا غيرةُ العبيد، ورغبتهم في إشباع شراستهم هم أيضًا. إنّ طموح الخروف إلى أن يتقمّص دور الذئب هو باعث أغلب الأحداث. كلّ من ليس له نابٌ يحلم به. ويريد أن يفترس هو أيضًا. وينجح في ذلك بواسطة حيوانيّة الكثرة.

التاريخ - ديناميكيّة الضحايا.

*

بسبب وضعها الذكاء في خانة الفضائل والحمق في خانة الرذائل، وسّعت فرنسا مجال الأخلاق. من ثمّ مِيزَتُها على الأمم الأخرى. من ثمّ تفوّقُها الضبابيّ.

*

في وسعنا أن نقيس درجة تطوّر حضارةٍ ما بالنظر إلى عدد ما فيها من مرضى الكبد والعجز الجنسيّ والعصاب. ولكن لِمَ نقتصر على هؤلاء المعاقين، في حين أنّ هناك الكثير غيرهم الذين يثبتون بخمول أمعائهم أو زوائدهم، الازدهار التامّ للعقل؟

*

الضعاف بيولوجيًا لا يجدون أيّ متعة في الحياة، لذلك يحاولون تغيير شروطها.

لِمَ لم نعزل المصلحين من أوّل بوادر أعراض الإيمان؟ وماذا انتظرنا لحشرهم في مستشفى أو سجن؟ كان علينا أن نجد مكانا هناك لابن الجليل في الثانية عشرة من عمره. المجتمع سيّئ التنظيم. إنّه لا يفعل شيئًا ضدّ المصابين بالهذيان الذين لا يموتون صغارًا.

*

الشكوكيّة لا تفيض علينا ببركاتها إلاّ بعد فوات الأوان، على وجوهنا التي أتلفتها القَناعات، على وجوه الضباع ذات المُثُل..

*

كتابٌ عن الحرب ـ لكلاوزفيتش[1] ـ كان هو كتاب السرير بالنسبة إلى لينين وهتلر. ثمّ نتساءل لِمَ كان هذا القرن ملعونًا!

*

لَزِمَنَا وقتٌ طويل للانتقال من الكهوف إلى الصالونات. هل سيلزمنا الوقت نفسه لخوض الطريق المعاكس أم أنّنا سنحرق المراحل؟ سؤال غريب بالنسبة إلى من لا «يستشعرون[٧]» ما قبل التاريخ.

*

المصائب كلّها ـ ثورات، حروب، قمع ـ ناتجة عن «شعار تقريبيّ» مكتوب فوق علَم.

*

الشعوب الفاشلة وحدها تقترب من مثال إنسانيّ. الشعوب الأخرى الناجحة، تحمل سمات مجدها، علامات حيوانيّتها المذهّبة.

*

أثناء لحظات الرعب نكون ضحيّة اعتداء من طرف المستقبل.

*

يخيفني كثيرًا رجل السياسة الذي لا تبدو عليه أيّ علامة من علامات حبّ السلطة.

*

الشعوب الكبيرة التي تملك زمام مآسيها، تستطيع أن تنوّع فيها كما تشاء، أمّا الشعوب الصغيرة فإنّها محكومة

بالمآسي التي تُفْرَضُ عليها.

*

الحيرة - أو التعصّب إلى الأسوأ.

*

إذا اعتنقت طبقةُ اللصوص أسطورةً فانتظروا مذبحة، أو ما هو أسوأ من ذلك: ولادةَ دين جديد.

*

الأعمالُ ذاتُ الدويّ والبريق، حَكْرٌ على الشعوب التي تعذّر عليها، لغربتها عن مُتَعِ التأخّر على الطاولة، أن تعرف شاعريّة التحلية وكآبة الهظم.

*

لولا طولُ نَفَسِ الدناءة، هل كان النوع البشريّ يدوم أكثر من جيل واحد؟

*

ثمّة من الصدق والجديّة في العلوم الغيبيّة أكثر ممّا في الفلسفات التي تصرّ على جعل التاريخ ذا معنى.

*

هذا القرن يعيدني إلى فجر الزمن. إلى آخر أيّام الفوضى. أكاد أسمع أنين المادّة ونداءات الجثّة وهي تعبر الفضاء. عظامي توغل في نُسَخٍ من «ماقبل التاريخ» بينما يسيل دمي

في شرايين الزواحف الأولى.

*

أَبْسَطُ نظرةٍ على مسيرة الحضارة تجعلني لا أقِلُّ عن كاسندرا[٨] قدرةً على التنبّأ.

*

سيتمّ «تحرير» الإنسان يومَ يتخلّص من ملفّ الغائيّة ليفهم أنّ ظهوره حدثٌ عارض وأنّ مِحَنَهُ مجانيّة، يومَ يتاح لكلٍّ أن ينطّ مثل ذبيح راضٍ وقنوع، ويوم تُختصر الحياة بالنسبة إلى الدهماء نفسها في أبعادها الحقيقيّة: مجرّد «فرضيّة عمل».

*

من لم يشاهد ماخورًا في الخامسة صباحًا، لا يمكنه أن يتصوّر نحو أيّ ملل يتّجه كوكبنا.

*

لا يمكن الدفاع عن التاريخ. لابدّ من التصرّف إزاءه ببرودة الكلبيّ[٩]، وإلاّ لكان علينا أن نصطفّ مع الناس كما اتّفق، أي أن نسير مع غوغاء الثائرين والقتلة والمؤمنين.

*

تجربة البشر مُنِيَت بالفشل. لقد بدأ فشلها مع آدم. ثمّة سؤال يظلّ مع ذلك شرعيًا: هل سيكون لنا من الاختراعات ما يكفي لنظهر في مظهر المجدّدين؟ لنظيف إلى هذا الفشل؟

في انتظار ذلك، لنحافظْ على أنفسنا من خطيئة أن نكون بشراً، لنتصرّفْ كمهرّجي سقوط، لنكن خفافًا إلى أقصى درجات الرعب.

*

لا شيء يعزّيني في كوني لم أشهد لحظة انفصال الأرض عن الشمس، سوى توقّعي أنّي سأشهد لحظة انفصال البشر عن الأرض.

*

في قديم الزمان، كنّا ننتقل بجدّ من تناقض إلى آخر. كنّا نعيش المتناقضات بالقدر الذي يمنعنا من أن نعرف بأيّها نتعلّق ولا أيّها نحلّ.

*

عقلانيّين بلا هوادة، عاجزين عن التأقلم مع القدر عاجزين عن فهم معناه، نتصوّر أنّنا مركز أفعالنا ونعتقد أنّنا ننهار بمشيئتنا. وما أن تتدخّل تجربة في حياتنا حتّى يتّخذ القدرُ الهلاميّ المجرّد، في نظرنا، مَجْدَ الشيء المحسوس. هكذا يقوم كلّ منّا وعلى طريقته بتسجيل دخوله إلى ما هو لاعقلانيّ.

*

ما أن تَبلُغَ حضارةٌ نهايةَ مسيرتها حتّى تفقد موقعَها كشذوذ

سعيد، فإذا هي تذبل في منظومة من القواعد، وتصطفّ وراء مفاهيم باهتة، وتتمرّغ في الفشل، وتحوّل مصيرها إلى مشكل وحيد. عن هذا الهوس بالذات تُقَدِّمُ إسبانيا النموذج المثاليّ. فبعد أن عرفت أيّام الكونكيستادور[١٠] تفوّقًا بشريًا على قدر كبير من الحيوانيّة، أخذت تجترّ ماضيها وتلوك نقائصها، تاركة فضائلها وعبقريّتها تخزّز، وفي المقابل، تبنّت انحطاطها، وقد عشقته، كشكل جديد من أشكال التفوّق. كيف لا نتفطّن إلى أنّ هذه المازوشيّة التاريخيّة، كفّت عن كونها خاصيّةً إسبانيّة، لتتحوّل إلى مناخ، أو ربّما إلى وصفة لانحطاط قارّة بأكملها؟

*

اليوم وفي موضوع قابلية الحضارات للزوال، يمكن لأحد الأميّين أن ينافس في الارتعاشات غيببون أو نيتشة أو شبنغلر[١١].

*

نهاية التاريخ؟ نهاية الانسان؟ هل يكون من الجديّ التفكير فيهما؟ إنّهما حادثان بعيدان، تريد الحيرة - النهمة إلى الخرابات العاجلة - أن تسارعهما مهما كان الثمن.

هوامش "دوار التاريخ":

١– قد يبدو سيوران لأوّل وهلة بعيدا عن أسطورة بروميثيوس، سارق النار ومعلّم الإنسان، الذي عاقبه زيوس بسبب ذلك. فسيوران لا يرى الكتابة تعليماً لأحد، وهو يعتبر أنّ وجود قرّاء للكتّاب لا ينتج عنه غير الكوارث... (هل هي مفارقة أخرى من مفارقاته؟)..

٢– لا تخلو عبارة سيوران Lucifèrianisme، من إشارة ممكنة إلى جماعة "عبادة الشيطان".

٣– فضّلت الإبقاء على جرس الكلمة Gendarme، وكان في الإمكان استعمال كلمات أخرى.

٤– اخترنا كلمة الغجر، وكان يمكن أن نستعمل كلمة النور أيضًا لترجمة كلمة Tziganes.

٥– ترمبيطة Trompette، وقد فضّلت هذه الصيغة، على كلمتي "بوق" و"صُور".

٦– هو الجنرال والمنظّر العسكريّ البروسيّ كارل فون كلاوزفيتش Carl Von Clausewitz (١٧٨٠–١٨٣١م) الذي كان لكتابه في فنّ الحرب تأثير كبير ومتّصل.

٧– لابدّ من الإشارة هنا إلاّ أنّ سيوران استعمل كلمة تفيد معنى التوقّع ومن ثمّ الاستشعار، وهما معنيان مقترنان عادةً بالمستقبل، إلاّ أنّه هنا، وضمن سياق "فنّ المفارقة" لديه، يجعلهما مقترنين بالماضي، وكأنّه يعود. وكأنّنا نذهب إلى ما قبل التاريخ من جديد.

٨– كاسندرا Cassandre ابنة بريام، منحها أبولون القدرة على معرفة الغيب، إلاّ أنّها لم تستسلم له، فعاقبها بأن لا يصدّق أحد نبوءاتها.

٩– نسبة إلى الكلبيّة Cynisme (راجع هوامشنا السابقة).

١٠– الكونكيستادور Conquistadores: المغامرون الإسبان الذين فتحوا أمريكا في القرن السادس عشر.

١١– يذكر سيوران هنا، إلى جانب نيتشة الذي تعرّضنا له سابقًا والذي ألّف كتاب "أفول الأصنام"، كاتبين يشتركان في الاهتمام بتيمة انحطاط الغرب وأُفوله: المؤرّخ البريطانيّ إدوارد غيبّون ١٧٣٧-١٧٩٤م (Edward Gibbon) الذي ألّف "تاريخ انحطاط الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها" والمؤرّخ والفيلسوف الألماني أوزوالد شبنغلر ١٨٨٠-١٩٣٦م (Spengler Oswald) الذي ألّف كتاب "أفول الغرب" أو كما سُمّي في بعض الترجمات: "تدهور الحضارة الغربيّة".

عند منابع الفراغ

أومن بخلاص البشريّة، بمستقبل الزرنيخ[1].

*

تُرَى، هل يمكن للإنسان أن ينهض بعد أن سدّد للحياة ضربته القاضية؟

*

لن أُفلِح في التصالح مع الأشياء، حتّى وإن انتَزَعَتْ كلٌّ لحظةٍ نفسَها من الزمن لتمنحني قُبلة.

*

وحده الفكر المتصدّع يملك نوافذ تطلّ على الآخرة.

*

من منّا وهو يبحث عن نفسه في المرآة، في شدّة العتمة، لم يشاهد معكوسةً الجرائمَ التي «تنتظره»؟

*

لو لم تكن لنا القدرة على تضخيم أسقامنا لاستحال علينا تحمُّلُها. ونحن لا ننسب إليها البعيد من الأحجام إلاّ لنعتبر أنفسنا ملعونين بامتياز، مختارين في الاتّجاه المعاكس، مخدوعين ومدفوعين بفقدان الحظوة.

من أكبر النِعم أن يوجد داخِلَ كُلٍّ مِنًّا متبجّحٌ بما هو عضال.

*

علينا أن نراجع كلّ شيء، حتّى النحيب.

*

إذا بدا لكم أسخيليوس أو تاسيت أكثر فتورًا ممّا يجب، فافتحوا إحدى «سيَرِ حياة الحشرات»[٢]: تجلٍّ لكلّ ما هو شغف بالحياة ولا جدوى. جحيم لن يكون له من حسن حظّنا دراماتورج ولا مؤرّخ. ماذا يبقى من تراجيدياتنا لو عنّ لإحدى حشراتنا المتعلّمات أن تحدّثنا عن مآسيها؟

*

لا تقومون بأيّ فعل ومع ذلك تشعرون بحمّى المنجزات الكبرى. دون عدوّ تخوضون معركة مضنية. ذاك هو «الضغط المجانيّ» للعُصاب، وهو قادر على منح عطّار رعشات جنرال مهزوم.

*

لا أقدر على تأمّلِ ابتسامة دون أن أقرأ فيها: «تَمَلَّ منّي فهي المرّة الأخيرة».

*

إلهي، اِرحم دمي، أنيمِيا اللهب لديّ...

*

كم يلزمنا من تركيز وصناعة وحصافة، لتدمير «مبرّر وجودنا».

*

كلّما عنّ لي أنّ البشر ليسو سوى رَشَاشِ لُعابٍ تلفظه الحياة، وأنّ الحياة نفسها لا تساوي أفضل من ذلك بالنظر إلى المادّة، اتّجهتُ إلى أوّل حانة في طريقي مقرًّا العزم على عدم مغادرتها البتّة. ولكن هَبْ أنّي أفرغت هناك ألف زجاجة، فإنّها لن تمنحني الرغبة في اليوطوبيا، ذلك الاعتقاد بأنّ شيئًا مَا، مازال ممكنًا.

*

كُلٌّ يعتزل في خوفه؟ في برجه العاجيّ.

*

سرّ تكيُّفي مع الحياة؟ أنّي أغيّرُ اليأس كما أغيّرُ القميص.

*

في كلّ إغماء ينتابنا إحساس أخير في الله.

*

نَهَمِي للاحتضار جعلني أموت بالقدر الذي بدا لي معه أنّه من غير اللائق المزيد من استغلال جثّة لم أعد قادرًا على جني شيء منها.

*

لماذا الكائن أو أيّ اسمٍ آخر بحرف بارز؟ الله كان أحسنَ جرسًا. وكان من الواجب المحافظة عليه. أليس من المُفْتَرَض

أن تكون أسباب تناغم الألفاظ هي التي تحكم لعبة الحقائق؟

*

حين يبلغ الذروةَ دون سبب، يتحوّل التعبُ إلى هذيان ويتحوّل المُتْعَبُ إلى مُبْدِعٍ عالَمٍ من درجة ثانية.

*

ما من يومٍ إلاّ وهو بمثابة نهر الروبيكون[٣] الذي أتوق إلى الغرق فيه.

*

لن نجد لدى أيٍّ من مؤسّسي الأديان رحمةً تضاهي تلك التي تتمتّع بها إحدى مريضات بيير جانيه[٤]. كانت تتعرّض في بعض ما يعتريها من نوبات، إلى موضوع «محافظة السين إي واز[٥] المسكينة، التي تطوّق محافظة السين وتحتويها دون أن تستطيع منها فكاكًا».
في الرحمة كما في كلّ شيء: لملجأ المجانين الكلمةُ الأخيرة.

*

في أحلامنا يتجلّى المجنون الذي فينا. فإذا هو ينام في أعمق أعماقنا بعد أن يكون قد حكم ليالينا. ينام في رحم النوع البشريّ، إلاّ أنّنا نستمع إليه أحيانًا يشخر في أفكارنا.

*

ذاك المشفق على كآبته الخائف من أن يشفى منها، كم يتنفّس

الصعداء وهو يلحظ أنّ مخاوفه كانت دون موجب وأنّ الكآبة مرض عضال.

*

«من أين جاءتك ملامح الزهو هذه؟ – لقد أفلحتُ في البقاء حيًّا كما ترون، على الرغم من ليال وليالٍ عشتُها أسأل إن كنت سأقتل نفسي عند الفجر.»

*

اللحظة التي تُسَوِّلُ لنا أنّنا فهمنا كلّ شيء، تمنحنا هيئة القتلة.

*

لا ننتهي إلى ما لا رجعة فيه إلاّ لحظة نعجز عن تجديد حسراتنا.

*

تلك الأفكار التي تحلّق في الفضاء، ثمّ تصطدم فجأة بجنبات الجمجمة...

*

طبيعة المتديّن لا تحدّدها القَناعات بقدر ما تحدّدها الرغبة في تمديد المعاناة إلى ما بعد الموت.

*

أشاهد مرعوبًا تناقُصَ حقدي على البشر، تلاشِيَ آخر صلة كانت تشدُّني إليهم.

*

الأرق هو شكل البطولة الوحيد الذي يتلاءم مع الفراش.

*

ليس أخطر على شابّ طموح من مخالطة الخُبَراءِ بالناس. لقد خالطتُ منهم ثلاثة أو أربعة، أجهزوا عليّ قبل أن أتجاوز العشرين.

*

الحقيقة؟ إنّها لدى شكسبير؟ ليس في وسع فيلسوف أن يمتلكها دون أن ينفجر مع نظامه.

*

ما أن نستنفد التعلّات التي نتذرّع بها للفرح أو الحزن، حتّى نَخْلُصَ إلى عيشهما حقًّا، كليهما، في حالتهما المحض. هكذا نلتحق بالمجانين.

*

بعد أن شهّرتُ مرارا وتكرارا بجنون العظمة لدى الآخرين، كيف أسوّغ لنفسي دون إحساس بالحرج، الظنَّ بأنّي مازلت الرجل اللافعّال بامتياز؟ اللامُجْدِيَ الأوّل؟

*

«فكرةٌ واحدة نخصُّ بها الله أفضل من الكون كلّه» (كاترين إيمريخ[٦])؟ كانت على حقّ تلك القدّيسةُ المسكينة.

*

لا يرقى إلى الجنون إلاّ الثرثارون والصموتون. الذين أفرغوا أنفسهم من الأسرار كلّها والذين أفرطوا في تخزينها.

*

في الرعب - جنون العظمة المعكوس - نتحوّل إلى مركز لدوّامة كونيّة، بينما تدور حولنا الكواكب.

*

حين تنضج فكرة في شجرة المعرفة، كم يكون من الممتع أن نتسلّل إليها وأن نفعل بها فعل اليرقانة، معجّلين السقوط.

*

كي لا أنتقص من معتقدات الآخرين أو جهودهم، وكي لا أُتّهم بالقسوة أو الخمول، ألقيت بنفسي إلى القلق حتّى جعلت منه طريقتي في التقوى.

*

المَيْلُ إلى الانتحار ميزةُ القَتَلَةِ الوجِلِين الذين يخشون القوانين، وإذ يخافون من ممارسة القتل، فإنّهم يحلمون بالإجهاز على أنفسهم ليقينهم بأنّهم ناجون من العقاب.

*

قال لي أحدُ أنصاف المجانين: من تُرَى كان يمنعني من أن أحزّ عنقي كلّما حلقتُ ذقني، غير الله؟

– إنّه الإيمان لا يَعْدُو أن يكون حيلةً من حيل غريزة حبّ البقاء. إنّها البيولوجيا تحكم كلّ شيء...

*

مَخافَةَ أن نتعذّب، نَبْذُلُ قصارى جهدنا كي نلغي الواقع، وما أن نفلح في ذلك حتّى يتحوّل هذا الإلغاء نفسه إلى مصدر عذاب.

*

لا يرفضُ أن ينظر إلى الموت كمن ينظر إلى حلمٍ ورديّ، إلاّ من كان قلبُهُ مصابًا بعمى الألوان.

*

بسبب رفضها الاحتفالَ بالإجهاض وامتناعها عن إباحةِ أكل لحم البشر، ستُضطرّ المجتمعات الحديثة إلى حلّ معضلاتها بطرق أشدّ ضراوة.

*

لا ملجأ لمن أصابهم القَدَرُ غير «فكرة» القدر.

*

كم أتمنّى أن أكون نبتة، حتّى وإن استوجب ذلك أن أحرس كتلة براز.

*

هذا الحشد من الأسلاف الذين ينتحبون في دمي...احترامًا

لهزائمهم ها أنا أنحطُّ إلى مستوى الزفرات.

*

ما من شيءٍ إلاّ وهو يضطهد أفكارنا، بدءًا من دماغنا نفسه.

*

لا يمكن أن نعرف إن كان البشر سيواصل طويلاً استخدام الكلام، أم أنّه سيستعيد شيئًا فشيئًا عادةَ العواء...

*

باريس أبعد نقطة عن الفردوس، إلاّ أنّها تظلّ المكان الوحيد الذي يطيب فيه اليأس.

*

ثمّة أرواح يتعذّر على الله نفسه إنقاذُها، وإن ركع وصلّى من أجلها.

*

كان أحد المرضى يقول لي: فيمَ آلامي وأنا لست شاعرًا لأستغلّها أو أفاخر بها؟

*

حين تُستنفد مواضيع الثورة ولا نجد شيئًا نتمرّد عليه، يصيبنا الدوار حتىّ يهون علينا بيعُ الحياة مقابل أيّ تحامُل.

*

في حالة الامتقاع، ينسحب دمنا كي لا يحول بيننا وبين

ماذا... لا نعرف...

*

لِكُلٍّ جنونُه. وقد تمثّل جنوني في أن أعتبر نفسي سويًا، سويًا بشكل خطر. ولمّا كان الآخرون يبدون لي مجانين، فقد انتهى بي الأمر إلى الخوف منهم، وإلى الخوف منّي أكثر.

*

على إثر بعض نوباتِ الأبديّة والحمّى، قد يعنّ لنا أن نسأل لماذا لم نتنازل فنكون الله.

*

الميّالون إلى التأمّل والشهوانيّون: باسكال وتولستوي. أن نكبّ على الموت أو أن نمقت الموت. أن نكتشفه عن طريق العقل أو بواسطة الفيزيولوجيا. استطاع باسكال بواسطة غرائزه الملغومة أن يتجاوز مخاوفه، بينما ثارت ثائرة تولستوي لإحساسه بحتميّة الهلاك، فإذا هو أشبه بالثور المذعور أو الدغل المُعفّر. ذلك أنّنا نكفّ عن التأمّل ما أن نبلغ «خطّ استواء الدم»[٧].

*

كلٌّ من أنْسَتْهُ فتراتُ طيشه المتتالية أن يقضي على نفسه، يظهر لنفسه بمظهر واحد من قُدماء الألم أو واحدٍ من متقاعدي الانتحار.

*

كلّما تمتّنت علاقتي بالغروبات ازددت يقينًا بأنّ الوحيدين الذين فهموا شيئًا ممّا يتعلّق بشرزمتنا، إنّما هم المغنّون والدجّالون والمجانين.

*

التخفيف من شدائدنا وتحويلها إلى شكوك، تلك خطّةٌ من وحي الجبن، الذي لا يعدو أن يكون شكوكيّة في متناول الجميع.

*

باعتباره منفذًا لا إراديًا إلى ذاتنا، يضطرّنا المرض إلى «العمق» ويحكم به علينا؟ المريض؟: ميتافيزيقيّ بالرغم عنه.

*

بعد أن تبحث عبثًا عن وطَنٍ يتبنّاك، تنكفئ على الموت، لتستقرّ أخيرًا كـ «مواطن»، في هذا المنفى الجديد.

*

كُلُّ كائنٍ يَظْهَرُ إنّما هو كائن يجدّد على طريقته شباب الخطيئة الأصليّة.

*

بانطوائه على دراما الغُدد، بإصغائه إلى مُسَارّات الأغشية المخاطيّة، يصنع منّا القَرَفُ مختصّين في وظائف الأعضاء.

*

لو لم يكن للدم هذا الطعم الغثّ، لَمَا تميّز الزاهدُ إلاّ برفضه أن يكون مصّاص دماء.

*

الحُيَيْةُ المنويّة هي قاطع الطريق المحض.

*

أن نخزّن الأقدار، أن نتخبّط بين التعاليم الدينيّة وحفلات القصف والفجور، أن نسترخي في كلّ ما هو مضطرب وهائج، ثمّ مثل البدو المهابيل، أن نتشبّه بالله، هذا الذي لا وطن له...

*

من لم يذق الإهانة لا يعرف معنى الوصول إلى آخر مراحل الذات.

*

لم أحصل على شكوكي إلاّ بعد جهد جهيد، أمّا خيباتي، تلك الإشراقات الأساسيّة، فقد جاءتني من تلقاء نفسها، وكأنّها كانت طول الوقت في انتظاري.

*

مادمنا على سطح كوكب يؤلّف مرثيته، فليكن لنا من الحياء ما يكفي كي نتصرّف كجثث لطيفة.

*

شبئنا أم أبينا، نحن جميعًا محلّلون نفسانيّون، مغرمون بأسرار القلوب والسراويل، مولعون بالغوص وراء الفظاعات.

ويلٌ للعقلِ ذِي الهُوِيِّ المضيئة.

*

في لحظات القنوط، ننحدر نحو أسفل نقطة في الروح وفي الفضاء، نحو أبعد مكان عن النشوة، نحو منابع الفراغ.

*

كلّما عَاشَرْنَا البشرَ اسودّت أفكارُنا، فإذا عدنا إلى عزلتنا بحثًا عن النور، وجدنا في العزلة الظلال التي أفشتها تلك الأفكار.

*

الحكمةُ المُحرّرة من الأوهام قد ترجع إلى أحد العصور الجيولوجيّة، بل ربّما كانت سبب انقراض الديناصورات.

*

ما أن بلغتُ المراهقة حتّى كانت فكرة الموت تخرجني عن طوري، فلا أجد مهربًا منها إلاّ في المسارعة إلى الماخور مستغيثًا هناك بالملائكة. إلاّ أنّ التقدّم في السنّ يعلّمنا أن نتأقلم مع مخاوفنا، فنتخلّى عن أيّ محاولة للتهرّب منها، ونتبرجز في الهاوية. وإذا كنت ذات يوم قد حسدتُ رهبان

مصر، الذين كانوا يحفرون قبورهم بأنفسهم ليذرفوا فيها الدموع، فإنّي الآن لو حفرت قبري بيدي، لَمَا ألقيتُ فيه إلاّ بأعقاب السجائر.

هوامش "عند منابع الفراغ":

١- يستعمل سيوران هنا كلمة الزرنيخ Cyanure (السمّ المعروف) في سياق ملتبس مقصود، فإمّا أن نفهم أنّ مستقبل البشريّة (وخلاصها) هو الزرنيخ (دعوة إلى انتحار جماعيّ أو تنبُّؤ به؟) وإمّا أنّ نفهم أنّ للزرنيخ مستقبلاً زاهرًا، كمفتاح لخلاص البشريّة. ولعلّ نتيجة كلّ من التأويلين واحدة..

٢- الشاعر التراجيدي اليوناني أسخيليوس ٤٥٦-٥٢٥م (Eschyle) رائد التراجيديا القديمة، الذي كانت أعماله مستوحاة من الحروب والأساطير (برميثيوس مصفدًا، الفرس، إلخ...) والمؤرّخ وأحد أبرز الكتّاب في اللاتينيّة تاسيت Tacite أو Publius Cornelius Tacitus (٥٥-١٢٠م)

٣- نهر الروبيكون Rubicon الفاصل بين إيطاليا والـ Gaule Cisalpine، والذي عبره قيصر دون إذن في الليلة الفاصلة بين يومي ١١و١٢ من الشهر الأوّل لسنة ٤٩ قم. وكان ذلك أعلان بداية الحرب الأهليّة. وأصبحت عبارة: عبور الروبيكون، تشير إلى اتّخاذ قرار شديد الخطورة وتحمّل العواقب المنجرّة عنه.

٤- بيير جانيه Pierre Janet: مستشفى الأمراض العقليّة.

٥- منطقة السين إي واز Seine-et-Oise حوض باريس سابقًا قبل أن يتمّ تقسيمها إلى ثلاث مناطق.

٦- لعلّها أنّا كاترينا إيمريخ ١٧٧٤-١٨٢٤م (Katharina Emmerich Anna) التي كانت "تحسّ بأنّ السيد المسيح يكلّمها، ويقاسمها آلامه، وكانت

هذه الآلام تترك آثارها واضحة على جسدها..."

٧- هكذا رأينا ترجمة عبارة: Aux équateurs du sang.

الفهرست

هذا الكتاب

حين يُشْبِع الطغاة شراستهم يتحوّلون إلى رجال طيّبين. وكان يمكن أن تعود الأمور إلى نصابها لولا غيرةُ العبيد، ورغبتهم في إشباع شراستهم هم أيضًا. إنّ طموح الخروف إلى أن يتقمّص دور الذئب هو باعث أغلب الأحداث. كلّ من ليس له نابٌ يحلم به. ويريد أن يفترس هو أيضًا.

اميل سيوران

